

اقرا

[۸۷]

غارة ربيد

obeykandl.com

على الحمام

غادة ربيع

الطبعة الرابعة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة
من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ
أبناء الشعوب العربية. وأن يتفعوا، وأن
تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

فى اليوم الثانى من شهر يولية سنة ١٧٩٨ كانت الشمس تدرج من خدرها ، فترسل أشعتها فوق النيل براقه وهاجة كالذهب النصار ، وقد تكسرت أمواجه وهبت عليه نسمة شمالية وثيدة الخطا ، بلل البحر الأبيض أذيالها بمائه ، ونفحها ببخاره المملوء بعناصر القوة والحياة .

وكانت مدينة رشيد فى هذا الصباح جائمة فوق الشاطيء الغربى ، بعظمة منازلها وارتفاع مآذنها ، تنعم بلذة الهدوء الذى احتواها فى أثناء الليل ، إلا ما كان من العملة الذين اتجهوا أفواجا إلى مضارب الأرز وإلا ما كان من زمر الفلاحين الذين قدموا من الشمال والجنوب لبيع حاصلاتهم من الحضر والفاكهة ، واللبن والبيض والدجاج ، وقد أخذ فى غض الشباب يرسل صوته عذبا مشجيا بأغنية يذكر فيها ما يبذله من الجهد لجمع مهر حبيبة فؤاده ، ثم يتم الأغنية بأن كنوز الأرض وثروة « البك الكبير » بمصر لاتكنى مهرا لهذا الجمال الرائع والحسن الفتان . ويسمعه بعض النساء والعذارى اللائى بكرن إلى النيل لغسل ثيابهن

وداء جرارهن ، وقد انثرن على شاطئه في ثيابهن الزاهية
الألوان كأنهن عقد اختلفت حباته حول جيد الحساء .
وقد زاد جمال الصبح في جمالهن ، وأمن نظرات العيون فكشفن
عن سوق خدال ، ومعاصم رخصة صافية البياض ، لولا
ما يجبسها من حجول وأساور لسالت في الماء ، كما يسيل الماء .
ضحكت إحداهن في دلال وعجب . وقالت لإحدى
صويحباتها :

– أسمعين غناء هذا الفلاح الأبله ؟ فأجابت :
– لعله يا فاطمة يتغزل في جاموسة لأحد جيرانه يريد
شراءها . فأسرعت فتاة لاتعرف مكر النساء ولا أساليهن ،
تقول في سداجة :

– ولكنه يصفها بأنها سوداء العينين ، صغيرة الأذنين !
فأرسلت فاطمة ضحكة مغرية الرنين وقالت : إنها الجاموسة
بعينها كما قالت سعاد ؛ وهي التي من أجلها يكدر علينا
هذا الفلاح الخافي جمال هذا الصباح بصوته المتكرر . من
أين يأتي هؤلاء الفلاحات الجمال ؟ ولو قدر لهن شيء
منه لطمسنه ببلاهتهن وقذارتهن ، وجهلهن بطبائع الرجال .
إن الجمال مهارة قبل أن يكون خلقة وفطرة . والمرأة التي
لا تستطيع التعبير بعينها وابتساماتها ، وأسارير وجهها
عما تحب وتكره ، والتي لم تدرس طبائع الرجل ، ولم تعرف

مواطن ضعفه وغروره ، لن يكون لها حظ عند زوجها ، ولو بلغت في الحمل ما بلغت زبيدة بنت البواب .

ارتفعت الشمس وعاد النساء بجرارهن ، واستيقظت المدينة الآهلة بسكانها ، الزاخرة بتزلاتها من جميع أقطار الشرق ، فقد بلغت رشيد في هذا الحين شأواً بعيداً من الثروة واتساع التجارة واستبحار العمران .

وكانت شوارعها ضيقة ملتوية ، تقوم على حافتيها منازل بنيت بطوب صغير الحجم أجيد إحراقه ، حتى أصبح كالحجر الصلد . وأعظم ما كانت رشيد تزهى به شارعان عظيمان ، أحدهما شارع البحر ، والثاني شارع مواز له يبتدىء من مسجد المحلى ، وينتهى جنوباً بالمسجد الجامع المسمى بمسجد زغلول ، وهو من المساجد النادرة المثال بمصر ، تزيد رقعته على رقعة الجامع الأزهر ، به مساكن لطلاب العلم الغرباء . وكان يلقي الدروس به طائفة من كبار علماء المدينة ، أشهرهم الشيخ أحمد الحضري ، والشيخ إبراهيم الجارم ، والشيخ محمد صديق .

وكان يسكن عظماء المدينة وكبار تجارها بشارع دهليز الملك ، وهو يبتدىء من الغرب بمسجد العرابي ، وينتهي في الشرق إلى النيل .

وكان يسكن بهذا الشارع عثمان خجا حاكم رشيد من

قبل مراد بك ، وكان رجلاً فاتكاً بطاشاً ، ظلنا جماعاً
للأموان أين وجدها ومن أى طريق وصل إليها . وكان به
منزل محمد بدوى چورنجى سردار مستحفظان ، والسيد
محمد البواب . والسيد إبراهيم الجمان ، — وهما من كبار
تجار الأرز بالثغر — والحاج عبد الله البربير شاعر المدينة
وزجالها . إلى غير هؤلاء من الأعيان والعلماء والكبراء .
وميناء المدينة أشد أحيائها ازدهاما وأكثرها جلبة وصخباً ،
تراصت به السفن آتية من أقطار الشرق والغرب ، وسار
ملاحوها فى شارع البحر يلغظون ، وقد اختلفت أزيائهم
والسنتهم وألوانهم . واختص شارع البحر بمضارب الأرز
فأطل عليه منها أكثر من ثلاثين دائرة ، يبيض فيها الأرز
بطواحين تدور بالخليل والبقر . وكان بهذا الشارع متجران :
أحدهما لفرنسى يدعى مسيو فارسى وهو يتجر فى الحبوب
والعقاقير الطبية ، والثانى لإنجليزى يتجر فى المنسوجات
الحريرية والصوفية ، هو مستر أوليقر نيكلسون . وقد كان
عند بدء تاريخنا هذا فى سن الأربعين ، رحب الجسم
قوى العضل ، يدل تألق عينيه الزرقاوين على قوة العزم ،
ويوحى انبساط أسارير وجهه بالوداعة واللفظ وسلامة
دواعى الصدر . وكان كامل الثقافة وافر العلم بأحوال الدول
والأمم .

فى ضحوة هذا اليوم جلست زبيدة بنت السيد محمد
 البواب فى غرفة نومها ، ثم قامت واتجهت إلى امرأة ذاهنة
 حاملة : فرأت وجهاً كأنه إشراقه الصبح أو صفحة البدر ،
 أو تبلج الحق بين ظلمات الشكوك . به عينان حوراوان
 امتزجت بهما صولة السحر بنشوة الخمر ، فكانتا شباك
 الفتنة لصيد القلوب . وأنف أحسن الله تقويمه وأبداع تكوينه
 فزاد وجهها جمالا . وثمر درى يا قوتى ، تهيم به الشفاه ،
 وتحوم حوله القلوب ضمأى . كما تحوم طيور الصحراء
 حول معين الماء العذب النмир . ثم رأت صدراً صافى البياض
 ممتلئاً بالأنوثة الناضجة ، يعبث بالعقول ، كأنه سبيكة
 من بلحين ، استعارت من الزئبق لينه فظهرت ناصعة رجراجة .
 كانت زبيدة فى الثامنة عشرة من عمرها ، وقد تفتح
 فيها الشباب كما تفتح زهرات الربيع ، وجالت بنفسها خواطر
 وثار بها نزعات لم تعرفها فى عهد الطفولة الغريرة ، وأحست
 بما تحسه الفتاة فى هذه السن ، من ميول متدفقة يكبتها
 الحياء وتكظمها بقية من أدب ودين .
 كانت زبيدة فارعة القد ممتلئة الجسم ، جرى حديث
 جمالها الفاتن من فم إلى فم ، وتنقل من دار إلى دار ،
 حتى أصبحت مضرب المثل بين فتيات المدينة . ومقياس
 الجمال كلما عرض ذكر الجمال . وتهافت أبناء التجار

والأعيان والحكام على خطبتها والتقرب من قدس حسيها ،
ولكنها كانت ترد كل توسل بالإدلال ، وكل إغراء بالرفض
والإباء . ولم تكن أمها لتستطيع أن تعمل شيئاً أمام هذه
الحسنة الجامحة ، ولم يكن أبوها - وهي وحيدته - ليرد
لها كلمة أو يقف بينها وبين ما تكره أو تحب . كانت
الفتاة المدللة العابثة المتحكمة ، وقد ملأها ثقها بجمالها كبيراً
وغروراً ، وزادتها ثروة أبيها الضخمة ميلاً إلى الإسراف ،
والتأنق في الرفه .

جلست زبيدة أمام مرآتها ورأت ما رأت ، فابتسمت
ابتسامة لؤلؤية ، ثم عبست وتجهمت أساريرها ، ثم رفعت
حاجبيها وشخصت بعينيها كالمفكرة المأخوذة ، ثم قالت
تحدث نفسها :

وليم تكذب « رابحة » العرافة ؟ أليس في حسي ما يذل
له كل عزيز ، ويخضع لسطوته كل ذي نفوذ وسلطان ؟
ألم يسر ذكر جمالي مع كل سائر ؟ ويطر مع كل ريح ؟
نعم إن رشيد مدينة نائية عن القاهرة مقر عطاء الحكام
وكبار الأمراء ، ولكن الملاحين الذين يسافرون إليها في
كل يوم لا يزالون يحفظون ويتغنون بتلك الأغنية السائرة ،
التي نظمها سرّاً الحاج عبد الله البربير والتي فيها :

الحسن كله في رشيد في بيت وإن كنت تنكر إسأل البواب

لا . لا . لا . لن تكذب رابحة ، وهى لم تتكهن بشيء
مستحيل أو بعيد المنال . ثم ضحكت ضحكة اليأس
والاستخفاف وقالت :

ألست أتثبت بنحيوط من الوهم . وتعبث بنى عاصفة
هوجاء من الخيال الكاذب ؟ من أنا حتى أكون حاكمة
مصر ؟ بنت السيد محمد البواب أحد تجار الأرز برشيد ؛
ها ها . وهذا كل ما أقدمه من الذرائع لأكون أول سيدة
بمصر ؟ ! لا يا زبيدة هذا لا يكفى . ثم إننى جميلة فائقة
الحس فاتكة اللحظات ، رائعة القسمات ، لم تطلع الشمس
على أنضر منى وجهاً ولا أملد عوداً ، ولا أشد إغراء وفتنة !
وهذا أيضاً لا يكفى يا زبيدة ، فإن منازل الرفعة لا تنال
بالجمال ، وحكام مصر وبكواتها يتصاهرون فيما بينهم
لحصر الملك فيهم ، وجمع السلطة فى أسرهم . لا يغريهم
سحر العيون ولا اعتدال القدود .

حقاً إننى أتعلق بأمل خداع وغرور مضلل ! ! وسأسقط
من القمة التى أنشبت فيها أظافرى مهشمة العظام ، مفككة
الأوصال . حينئذ سأفوق بعد أن قضيت زهرة شبابى فى
جنون وأحلام ، وحينئذ سأنظر حولى وقد بلغت الثلاثين
أو نحوها ، فأجد الخطاب وقد طاروا وتركوا عش فانتهم
حطاماً مبعثراً . ثم أنظر فى هذه المرأة التى أمامى فلا أرى

فيها تلك الفتاة الناعمة التي أراها اليوم ، ولكنى أرى فيها امرأة سواها ، دبت في وجهها الغضون ، وخمد من عينيها ذلك الثبريق الساحر اللماح .

لا . لا . لعن الله تلك العرافة ، ولعن الله اليوم الذي قابلتها فيه !

ثم أطالت النظر في المرأة : فرأت فحصة رائعة الحسن في نخدها الأيمن ، فابتسمت ، فزاد الابتسام تلك الفحصة ظهوراً وحسناً ، فعاودها الأمل ، ورفعت رأسها في شمم وعزة . وهمست :

ولكن العرافة لا تكذب . إننى لم أعرض عليها كفى ، كنت جالسة بجانب أمى فجذبتها ونظرت فيها لحظة ، ثم صاحت دهشة حائرة ، وكانت الحيرة تبدو في عينيها حقيقة لا تكلف فيها ، صاحت : إننى لم أر في حياتى هذا الخط في كف غير كففك وكف إبراهيم بك الكبير . إنه خط الملك ! إنه خط الملك ! ! خط العظمة ! خط الحكم ! ولكن ما هذا يا ربى ؟ ! سبحانك لا راد لمشيئتك ، ولا معقب لحكمك ! تباركت لك الأمر ، وببيدك الملك ، وأنت على كل شيء قدير ! ! انظرى يا زبيدة ، ما أنا بمخطئة . انظرى يا ما ليكى ! أترين هذا الخط الذى يمر بأسفل الإبهام قوياً بارزاً ، ثم لا يقف عند ذلك كأغلب الأكف ،

بل يمتد إلى نهاية الأصابع الأخرى حتى يصل إلى الخنصر .
 هذا هو خط الملك ! ! انظري إلى كفى ، فهل ترينه ؟
 ثم إلى كف أمك فهل تجددين له أثراً ؟ ! ثم إذا شئت
 فانظري إلى أكف أهل رشيد جميعاً ، وأنا زعيمة بأنك لن
 تعثرى على مثله .

دهشت ودهشت أمي ، وقهقهت قهقهة المذهول وقالت :
 ما هذا يا رابحة ؟ ما هذا الكذب الصراح ؟ كنا نرضى منك
 بدون هذا . وأين نحن من الحكم ومن مراتب الحكم ؟
 إن الحكم في مصر قسمة بين البشوات والبكوات ، ولن
 يناله مصري أنبتته أرض مصر . إننا نعيش في بلادنا غرباء
 نتلقف فتات ما يتركون . إن ابنة عثمان خجا تأنف أن تزور
 بيت رشيدى كيفما علا مقامه ، وعظم جاهه . إنها لا تسميننا
 إلا بالفلاحين ، كأن الله خلقنا من طين وخلق الترك من
 مسك وكافور . بنتى تحكم مصر ؟ ! دعيتها أولاً تحكم
 رشيد ، أو شارع دهليز الملك ، قبل أن تطيرى بها في جو
 الأحلام والأكاذيب . لعلك تظنين أنه كلما عظمت
 الأمنية عظم الأجر . ولكن الأمانى المعقولة شيء ، وهذا
 الجنون الحديد شيء آخر .

قالت أمي هذا ، فتطاير الشرر من عيني رابحة ، ووضعت
 يدها في جيبها في حنق وغضب . فأخرجت أنصاف الفضة

التي كانت أمي أعطتها إياها . وقذفت بها في وجه
 أمي وهي تصيح : جنون جديد ! هذه أنصافك يا سيدتي
 فأني في غنى عن مالك بما وهب الله لي من علم ومعرفة .
 وإذا كنت تظنين أن تكهني دجل وخرافة ، فلم دعوتني ؟
 لعل الذي جراك على أني أتقبل أجراً لقاء الإفضاء ببعض
 ما يتكشف لي من ملامح الغيب . ووالله لولا مس الحاجة
 ما تدليت إلى هذا الحضيض ، ولا سمعت اليوم من سيدتي
 نفيسة التي تظني امرأة أفافة أفاكة ، هذا السب الشنيع ،
 حقاً إن كل شيء يمتن إذا بيع بالمال : فالجمال يمتن
 إذا بيع بالمال ، والجاه يمتن إذا بيع بالمال ، والعلم يمتن
 إذا بيع بالمال .

ثم زايلها الغضب دفعة واحدة والتفتت إلى وحتت رأسها
 في إجلال وخشية وقالت : والآن تحيتي وخضوعي لمولاتي
 زبيدة ملكة مصر ، ثم انفلتت كما ينفلت الطائر من الشبكة
 فلم نر لها أثراً .

هذا ما جرى من رابحة العرافة ، أذكره كلمة كلمة
 كأنما أقرأه في لوح مكتوب . فهل كان كل ذلك كذباً
 وزوراً ؟ وهل أنا مخاطرة بحياتي وجمالي وشبابي ، في سبيل
 كذب وزور ؟

إن الزهرة إذا تفتحت اليوم ذبلت غداً ، والبدر إذا

تمّ كماله درج إلى النقص والمحاق .. وهل بعد بلوغ الفتاة الثامنة عشرة غاية للنضج وتفتح الأنوثة وتفجر الميول ؛ فإذا أحملها الخطاب في هذه السن ذوى عودها وخبث نارها ، وذهبت بشاشتها ، كالثمرة إذا لم تجن وانزع إذا لم يحصد . هكذا قضت الطبيعة القاسية المستبدة بكل حي ، فقد جعلت لكل شيء أواناً ، فإذا ذهب أوانه تبدل خلقاً آخر ، فزهده النفوس وتفحمته الأعين .

إن ابن خالتي محموداً العسال فتى يزدهى به الشباب ، وتعز به الفتوة . إنه زينة الأنداد وفخر الأمثال : جمال وجه إلى كرم خلق ، إلى جرأة وإقدام ، إلى كياسة وحزم ، ثم إلى ثروة وجاه عريضين . وما رأيته مرة إلا اختلج قلبي له ، وهفت روحى إليه ، وأحسست فى شفتى بدبيب يكاد يدفعهما إلى تقبيله ، وجرت فى جسمى نشوة عجيبة لا أعرف لها كنهاً ولا أستطيع لها وصفاً . أهذا هو الحب الذى يتغنى بأناشيده الرجال والنساء ؛ إن كان إياه فإنه حب عنيف تحكم فى نفسى ، وملاً على يقظتى وأحلامى . أما محمود فلم يدع وسيلة يدلى بها إلى إلا اتخذها ، ولم يترك كلمة من كلمات الغرام إلا سكبها فى أذنى . يغرى مرة ويتذلل أخرى ، ثم يصف ما يلاقه من الهجر ووصفاً يستنزل العصم ، ويهز الجبال الشم . وأنا أنصت إليه فى

وجوم وذهول ورعب ، وقلب مضطرب خفاق ، فإذا
 زادت بى ثورة الوجد كدت أثب عليه فألتهمه ضمماً وتقبيلاً
 لولا أطياف ذلك الخيال الخداع ، والأمل الختال ، التى
 كانت تسرع إلى نفسى فتجتذبنى من السماء إلى الأرض ،
 وتطفىء نار نزواتى ، وتهدىء من خفقات قلبى . ذلك الخيال
 الذى يصور لى الملك الموهوم ، والذى يوسوس إلى أن من
 قسم لها أن تكون حاكمة مصر لا ينبغي لها أن تصغى إلى
 كلمات الغرام من أى شخص ، ولو كان فى جمال محمود
 العسال ورجولته . أسمع هذا الوسواس الخناس فيعود إلى
 هدوئى ، وأرده عنى بكلمات تقتل الأمل وتجتث الرجاء ،
 ويعلم الله أنى أقولها وكل حرف منها سكين فى فؤادى وغصة
 فى حلقى ، إنه زهد فى جميع الفتيات لأجلى ولو أنه رفع
 إصبعاً لأجملهن لطارت إليه شغفاً ، واهتزت كالعصفور
 للقاءه شوقاً ، ولكنه أبى أن يتزوج إلا بى . ذكرت له أمه
 بنت الشيخ الحارم « رقية » - وهى من هى فى جمالها وخفة
 روحها ومنصب أبيها - فأبى . ثم ذكرت له بنت السيد
 أحمد المحروقى زوج خالتى - وهى بنت الشرف والسيادة
 والجاه - فأبى ، فهل حكم علىّ وعليه أن نبى هكذا محرومين
 من ثمار هذا الحب ، ومن تلك اللجنة الدانية القطوف ،
 وبيننا وبينها كلمة تقال ؟ !

وما كادت تنتهي من تأملاتها حتى رأت خادماً الخاص
 «سروراً» يقبل نحو غرفتها ويقول : إن سيدى محموداً
 حضر منذ ساعة ، وهو جالس مع سيدتى الكبيرة ، وقد
 أرسلتنى لأدعوك إليهما

فخرجت تيمس فى دلال وعجب ، حتى نزلت إلى أمها
 فى الطبقة الثانية من المنزل ، فلما رأتها أمها قالت :

— أهلاً بعروسى الحسنة . تعالى بجانبى يا فتاتى وأنصفينى
 من ابن خالتك هذا ، فقد حطم رأسى بكثرة حديثه هذا
 الصباح ! ولولا حبي له وإعجابى بخلقه وأدبه ورجولته ،
 لكان لى معه شأن آخر .

فحيت زبيدة ابن خالتها بعينين مطبقتين تصنعت
 فيهما الحياء والخفر ، ثم جلست إلى جانب أمها ورفعت
 رأسها قليلاً نحو محمود ، وقالت :

— كيف حال خالتى زينب اليوم ؟

— الحمد لله ، ولكنها لا تزال عاجزة عن المشى ، ولا تزال
 تقاسى آلاماً مبرحة فى ساقها ، وبخاصة فى الليل .

— كانت هنا بالأمس « بدور » الدلالة وقالت : إنها
 كانت أصيبت بهذا المرض ، ولم يشفها منه إلا دهن ساقها
 بزيت ساخن خلط به دقاق الفلفل الأسود ، والقرفة والمر .
 — عملنا يا زبيدة كل شىء ، ولم نترك فى تذكرة داود

علاجاً إلا جربناه . واضطرت آخر الأمر إلى استشارة
الطبيب الفرنسي « شوفور » فقال لي : إنه مرض في المفاصل ،
وإن له مرهماً في فرنسا ، ولكن هذه الحرب بين الدول
سدت سبل البحار ، فلم يصل إلى مصر إلا قليل جداً
من البضائع التي كانت تغرق الأسواق .

كانت نفيسة أم زبيدة جالسة تعبت بسببها ، وهي
بادية العبوس تكاد تحترق غيظاً من الحديث في السفن
والتجارة ، لأنها كانت تود لو أن محموداً قذف بنفسه على
قدمي زبيدة يبالها بدموعه ، ويشتكى لها لوعة الحب والغرام
وليس أشهى لدى المرأة في سن اليأس من أن تشهد منظراً
للحب ، أو تسمع عنه حديثاً . لقد حرمتها الطبيعة الحب
الذي لم تنس حلاوته ، فلا أقل من أن تراه في غيرها .
ولما رأت الحديث تافهاً ، خطر لها بحق أن وجودها قد
يكون سبباً في كبح جماح عاطفة محمود فقامت مسرعة
وهي تقول : يا حسرتي ! لقد نسيت أن أنظر فيما تعده
الطاهية لغداء اليوم . ثم ذهبت نحو المطبخ ولقبقابها
العالى جلبة وقعقة ..

وهنا نظر محمود إلى زبيدة في ذل واستجداء ، وقد
أحست في لمحة خاطر ما وراء هذه النظرة ، وهدتها فطرتها
النسوية الماكرة إلى السكوت حتى تفتتح لها السبيل التي

يجب أن تسلكها . فأضرت إضراق المذنب الخاضع الذى
وظد النفس على تلقى ما يقذف به من تهم . وهنا قال محمود :
لقد وعدتني في آخر لقاء لنا يا زبيدة أنك ستفكرين
في الأمر . وستصارحيني بما انتهى إليه رأيك ، وسألتك
الرحمة بي فيما تفكرين . والإشفاق علىّ فيما تبين . والله
ما لقيتك بعدها إلا خفت أن أسألك عما هداك إليه التفكير
من الحكم لى أو علىّ ، لأنى رأيت من الخير لى أن أعيش
في نعمة من الشك ، وأن أستمر في مداعبة أمل واهن
أضعف من أنفاس المحتضر . مضى شهران يا زبيدة وأنا في
هذا الشك ، فهل لديك اليوم كلمة أقوى بها أملى . وأتوسم
فيها وجه سعادتي ؟ لا تقولى : « لا » يا زبيدة ، فإنه لم
يبق لى إلا وتر واحد ضعيف من أوتار الأمل ، أعزف
عليه أنشودة غرامى ، فإذا قطعته يا زبيدة سكتت أنشودتى
وسكتت معها نبضات قلبى . قولى : « نعم » يا حبيبتى .
وإذا عز عليك أن تقولها فلا تقولى « لا » .
كانت لواعج الحب تضطرم في نفس زبيدة ، كانت
تحس كأن سكاكين مثلثة تحز في فؤادها ، لأنها كانت
تهوى ابن خالتها وتراه المثل الأعلى للزوج والحبيب ، وتتمنى
لو ألفت بنفسها بين ذراعيه ، ومزجت دموعها بدموعه .
ولكن المسكينة كان لنفسها ناحيتان : ناحية يتحكم فيها

الوجدان وتطفى النزوات ، وناحية ألقى بزمامها إلى العقل واستسلمت إلى سلطان الإرادة . وظالما تحكمت الثانية في الأولى ، وأسكنت صيحاتها . فالتفتت إليه وقالت :

— أنت لا تشك يا محمود أنى أحبك كما أحب أخى علياً ، وأنى كلما فكرت في أمرك ارتفع في نظري هذا الحب الأخوى الطاهر الشفاف على حب الزوجة لزوجها ، فأضن به أن يذهب من يدي لأستبدل به حباً مادياً أرضياً ، قلقاً مضطرباً ، وربما دام وربما لا يدوم .

— حباً قلقاً مضطرباً ؟ إن حبي يا حبيبتي لو تجسم لكان ركائز في الجبال ، وصلابة وبأساً في الحديد . إنه قطعة من الروح وقلادة من القلب ، فإذا زال زالت الروح ، وذهب القلب معه . إن الحب الأخوى نفحة وراثية ، والحب الغرامى نفحة روحانية ، وشتان ما بين النفحتين ! لا تغالطيني يا حبيبتي ، وإذا رضيت أن أكون لك أنخاً فأطلقى لهذا الحب قليلاً من فضلة العنان ، ليكون حباً قدسياً تتعاقق فيه الروحان ، وتتلاقى الشفتان .

— هل سألت أبى ؟

— لقد أمثلته حتى إنه كان يفر منى . ولما ضاق بى ذرعاً آخر الأمر ، التفت إلى حزيناً وقال : « إنك تزيد في آلامى يا بنى بكثرة الإلحاح ، لقد ذكرتك أمامها

مرات ، ويعلم الله أنى لم أترك وصفاً مما يرغب النساء في الرجال إلا خلعتك عليك ، ولكنى لم أر منها اتجاهًا إليك ولا رغبة فيك . وقد عاهدت نفسي ألا أجرى إلا على ما أرادت ، وألا أدفعها إلى أمر لا ترغب فيه ، فإذا رضيت بك زوجاً فإننى سأكون أسعد خلق الله بهذا الزواج .

أما أمك : فقد قضيت معها ساعة اليوم فلم أجد منها إلا موافقة تامة ورضاً كاملاً ، غير أنها كانت كأبيك تخشى أن تلزمك إرادة أو تحملك على عزيمة ، فالأمر بين يديك يا زبيدة . إن في فمك كلمة هي الحياة أو الموت ، فأشفي على ابن خالتك المسكين ! !

نظرت إليه زبيدة في شيء من القلق مكتوم وقالت : لم يبق إلا رضاي ؟ ! وهذا شيء هين ، ولن يخلو زواج من عقبات ، وهذه عقبة صغيرة أسأل الله أن يقدرني على تذليلها ، فدعني الآن يا محمود ، فإن لكل شيء أواناً ، والذي سطر في لوح القدر سيكون ، ولا بد أن يكون . وهنا ظهرت عند باب السلم الشبيخة أمينة ، وهي امرأة كفيف تحفظ القرآن وتقرأ في بيوت أغنياء المدينة ، وكانت تقودها فتاة صغيرة قادرة الجلباب حافية القدمين ، أصاب الرمذ عينيها بدموع لا تنقطع ، فأوشكت أن تشبه من تقودها . دخلت الشبيخة أمينة وهي تقول :

صبحكم الله بالخير جميعاً وكفناكم شرور هذا الزمان .
 إن المدينة اليوم في ثورة جامحة ، فإن عثمان خجما لم يكتف
 بما يفرضه من الضرائب والمكوس والمصادرات في كل يوم ،
 حتى ابتكر ضريبة جديدة لا تترك للفقير ما يقتات به ،
 ولا تبقى للغنى ما تبقى له من قليل .

وهنا ظهر الحزن والهم على وجه محمود العسال ، ونهض
 واقفاً وهو يقول : لا يمكن أن نعيش يوماً آخر مع هؤلاء
 المماليك . ثم حيا زبيدة ومال إلى أذنها وهو يهمس : طال
 الصبر يا زبيدة فإلى متى ؟ ثم أسرع نحو الباب .
 وعندئذ قامت زبيدة متناقلة حزينة ، فهرعت إلى غرفة
 نومها لتكتم آلامها ، وما وصلت إليها حتى رمت بنفسها
 على السرير وكتمت أنفاسها الحرى في وسادة من الحرير ،
 وأخذت تبكى بكاء مكتوماً اهترت له أضلاعها في خفقات
 مضطربة ، وهي تقول : أحبه ! ! . . . أحبه ! ! . . .

وصل محمود إلى الشارع فرأى الناس يتسابقون إلى شارع
 زغلول ، وفي كل وجه صورة مخيفة للغضب والحزن وحب
 الانتقام . وكانت العين لا ترى فيهم إلا أشباحاً للفقر والجوع

والذل ، مشى محمود في إثرهم حتى إذا وصلوا إلى الشارع رأهم يتجهون نحو مسجد زغلول ، فهز رأسه حزيناً وقال : مسكين هذا المسجد : أصبح من يلتجئ إليه من المظلومين أكثر ممن يقصده للصلاة والعبادة ، والناس لا يجدون غيائاً في هذه الأيام إلا العلماء والأعيان . وويل لهؤلاء العلماء والأعيان ! إنهم أصبحوا أضعف من ذات خمار أمام ظلم عثمان خججا وظلم أعوانه وعصابته . اذهبوا أيها المساكين اذهبوا ، فإن عثمان خججا لن يرضى إلا بامتصاص آخر قطرة من دمائكم ، اذهبى اذهبى أيها الضحايا المنكودة ، فإن مراد بك إن رضى بقضم اللحوم فإن وكيله خججا لا يشبعه إلا التهام الجلود .

ثم يأخذ محمود سمته إلى شارع البحر ، ويميل إلى متجر أوليفر نيكلسون فيراه جالساً ومذبته في يده ، يذود بها الذباب عن وجهه ، وهو جهم الوجه حزين النفس يظهر عليه القلق والاضطراب . وكانت الصلة وثيقة العرا بين محمود ونيكلسون لتشابهه في أخلاقهما ، وللمعاملة المتصلة بينهما . فقد كان محمود متجر للمنسوجات الصوفية بالقاهرة ترك الإشراف عليه لابن عم له ، فكان يشتري البضائع من نيكلسون ويبعث بها إلى القاهرة ، وكان لنيكلسون اتصال وثيق أيضاً بأسرة البواب . فقد كان له أخ يتجر

في الأرز بدمشق فكان يبعث إليه به من مضرب البواب
لثقته بأمانته وحسن معاملته . لذلك نمت الصداقة بين
الأسرتين ، فكانت بنته لورا نيكلسون لا تجد لها في رشيد
صديقة أوفى ولا أكرم صحبة من زبيدة ، فأكثرت من
زيارتها والائتناس بها .
حيا محمود صاحبه ، وجلس وهو يلهث من الحر والتعب
وقال :

— رأيت الزمر الحزينة البائسة وهي تهرول مستغيثة مولولة
إلى مسجد زغلول ؟

— نعم يا محمود رأيتها ، وقد زادني مرآها حزناً على حزن ،
وألماً على ألم . إن هؤلاء المماليك جزارون لا يحسنون الذبح
لأنهم مصابون بجنون التدمير والتخريب ، وكم لاقت منهم
مصر وتلاقي إن امتد بهم الحكم وطاولهم الزمان . إن مصر
اليوم تحكها طائفة من اللصوص الأشقياء الذين لا يقف
شيء أمام جشعهم ، ولا يزعهم شرف ولا دين ، نهبوا كل ما في
أيدي المصريين ولم يعطوهم شيئاً ، فالوباء المتفشى في
الناس أشد من ظلم المماليك ، والجهل الذي عطل عقولهم
أشد من هذين .

— هذا بلاء محيق لا كاشف له إلا الله ، فالناس يثورون
في كل يوم ، ولكنهم لا يلاقون إلا الجلد والقتل ، والتعذيب

وهتك الحرمات ، حتى لقد فر كثير من الأسر إلى دمياط والقاهرة لعلهم يجدون متنفساً .

— يفرون من المقلاة إلى النار ، كما تقول في بلادنا .
المالك ممالك في كل أرض وبلد . اشنقوه ، اقتلوه ، احرقوه . كلمات خفت على ألسنتهم وتكررت كأنها تراتيل القساوسة . رأيت كيف يسيئون إلى الإفرنج في كل حين ، على الرغم من أن لهم قناصل يحملونهم ، فكم صادروا متاجر « فارسي » الفرنسي ومتاجر سواه ، وحينما كتبنا احتجاجاً إلى دولنا بأوروبا لم يزد لهم هذا إلا إيغالا في العسف وإغراقاً في النكاية .

— إنهم يبغضون الفرنسيين ويحاملون غيرهم أحياناً .
ألدك أخبار جديدة عن الحرب بين الدول ؟
قرأت أمس في جريدة إيطالية صدرت منذ شهر ؛ أن العداء شديد مستحكم بين إنجلترا وفرنسا ، وأن الحرب قائمة بينهما على أشد ما تكون عنفاً وقسوة ، وأن أساطيل إنجلترا تجوب البحار لحماية شواطئها وحصر فرنسا وحليفاتها ، ومنع أي مدد يصل إليها ، وأن الفرنسيين بعد أن فتحوا إيطاليا والنمسا وخافهم بقية الدول الضعيفة في أوروبا ، أصبحوا يصيحون في كل شارع في زهوة وشموخ قائلين : إلى إنجلترا . . . إلى إنجلترا . . . وكلما مر نابليون بونابارت

ذلك القائد الحديد الذى تمخضت عنه ثورتهم من حيث لا يعلمون . صاحوا : إلى النصر . إلى إنجلترا . إلى العالم !

— هل تظن أن مصر يناها شيء من شرار هذه الحرب ؟

— لقد أصابها الشرار فعلا يا بنى ، ألا ترى الكساد

الذى نحن فيه وانقطاع الصادر والوارد ؟

— إذا هجم هذا البونابرت على بلادك ، أتسرع للدفاع

عن حوزتها ؟ وماذا يكون من أمر لورا ؟ أتأخذها معك ؟

إنى أرى من الخير أن تدعها عند خالتى أم زبيدة فإنها

تكون إذاً بين أهلها .

— لن أستطيع أن أسافر يا محمود بعد أن أصبح البحر

شعلة من نار ، ثم إنى واثق أن بلادى لن تنال ، وأن لها

من قلوب أهلها وشجاعتهم ، سوراً من فولاذ يصد عنها

كل فاتح . إن غزوها محال ، ولكن الذى يهمنى ويقض

على مضجعى ، أن يكون فى الأمر خدعة . والذى يخيل

إلى أن هؤلاء الفرنسيين يظهرون أنهم يستعدون للهجوم على

إنجلترا ، ليدفعوها إلى التفكير فى حماية ثغورها. والتفرغ

إلى الاستعداد فى بلادها ، وليصرفوها عن النظر فى أية

خطة أخرى . ثم هم من وراء ذلك يتجهون بجيوشهم وأساطيلهم

إلى ناحية لم تخطر للإنجليز ببال . ويغلب على ظنى أنهم

بعد أن عجزوا فى غزو إنجلترا سيوجهون ضربتهم إلى مصر ،

ليسدوا طريق التجارة الهندية في وجه إنجلترا بالسيطرة على البحر الأحمر . وربما خطر لهم ، أن يتخذوا من مصر طريقاً لغزو الهند نفسها . لذلك أعددت لكل شيء عدته منذ أشهر ، فأسرت في جمع ما على عملائي من ديون ، وعقدت شركة مع عامل متجري «أورلندو» وهو رجل أمين أثق به ، حتى إذا صبح حدسى ، ونزل الفرنسيون ، فررت من المدينة ، وتركت له تجارتي وهو إيطالي لا يمسه الفرنسيون بسوء .

— أنت رجل قوى الخيال يا نيكلسون ، والذي يستمع لحديثك هذا يظن أن أعلام سفنهم تخفق اليوم على ميناء الإسكندرية .

— إن الإنجليز يا محمود قد يصفهم الناس ببطء الفهم ، ولكنهم إذا فهموا لم يخطئوا شاكلة الصواب ، وكيفما يكن الأمر فلست أرى في الحذر والحيلة بأساً ، فالسفينة التي سأسافر بها راسية الآن أمام المتجر ، حتى إذا حانت الساعة نقلت إليها ما أحتاج إليه ، وخرجت من المدينة بلورا على حين غفلة من أهلها . أين تسهر هذه الليلة ؟

— إننى أسهر عادة عند السيد إبراهيم الجمال . حيث نتحدث في التجارة ونتعرف أخبار المدينة وحوادثها .

— إن اليوم عيد ميلاد لورا وقد أعدت لنا الليلة وليمة ،

وألحت على أن أدعوك إليها ، فهل تستطيع أن تزورنا
بعد الغروب ؟

— إننى أسر لكل ما يسر لورا ، وسأكون عندكم فى
الموعد الذى ذكرت . وما أتم عبارته حتى سمع ضجيجاً
وصياحاً وجلبة ، فنظر فإذا جمع حاشد كأنه البحر المائج ،
فيه الرجال والنساء والأطفال وهم يصرخون ويولولون ، وأمام
هذا الجمع علماء المدينة وقد اتجهوا جميعاً نحو ديوان الحاكم .
فوثب محمود واندمج بينهم ، فلما انتهوا إلى الديوان زاد الضجيج
وعلا الصياح ، وأخذ الأطفال يصفقون ويرددون عبارات
يسجعونها وينغمونها مثل :

موجه رايحه وجيه موجه غرقنا ظلمك يا خوجه

ومثل :

ما فينا إلا العريان إيش راح نعمل يا عثمان
ودخل العلماء الديوان وهم فى حزن وغضب على ما أصاب
مدينتهم ، فلما رأهم عثمان نجحاً — وكان متكئاً على أريكة —
لم يتحرك للقائهم وبادرهم قائلاً :

— لقد سئمت هذا اللعبة ومجتها نفسى ، كلما هممت

بعمل فى هذه المدينة رأيتم تصدون لمعارضتى ، وتقفون
فى طريقى ، حتى لم يبق على إلا أن أستشيركم فى كل خطوة
أخطوها . فتقدم إليه الشيخ صديق — وكانت إليه زعامة

البلد - وهو عالم تقي زاهد ، ذرب اللسان قوى العارضة ،
يجبه الناس بالحق ولا يخاف في سبيله أحداً ، فقال :

- يا حضرة الأغا ، كان يجب عليك أولاً أن تقوم
إجلالاً للعلماء وتكريماً لهم ، والعلماء ورثة الأنبياء كما جاء
في الأثر الشريف ، فالذى لا يبجل العلماء لا يبجل الأنبياء
والعباد بالله ، وإذا رضيت لنفسك بهذا فإننا لا نرضى
أن يقيم بمدینتنا من يتصف بهذا الوصف . ثم انفجر
صائحاً : قم للعلماء أولاً ، ثم تكلم بما شئت ، فإن لكل
كلام كلاماً .

فأحس الأغا بما يحيط به من خطر ، ورأى أن الشيخ
جاءه من ناحية الدين ، وأن أية كلمة يقولها ستقلب عليه
وبالاً ، فتلعثم وقال : يامولانا ؛ إن العلماء سادة الناس
جميعاً ، وإنى أول من يتقرب إلى الله بإرضائهم ، غير
أن صباح هؤلاء العوام وما تجرعوا عليه من قذف الديوان
بالطوب والأحجار ، سلبنى صوابى وقلب ميزان تفكيرى .
ثم أخذ يصفح العلماء فى أدب ورعب ، فابتدره الشيخ قائلاً :
- قلت يا حضرة الأغا : إنك سئمت هذه اللعبة ،
فسميت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى فرضه
الدين على كل مسلم ومسلمة : لعبة . وهذا تعد على الشرع
الشريف ، واستهزاء بأحكامه . واعلم يا حضرة الأغا أننا

سنتمير فيما تسميه : لعبة . ما دمت مستمراً فيما نسميه
 ظلماً وإرهاقاً . ثم قلت مستنكراً : إنه لم يبق عليك إلا أن
 تستشيرنا في كل خطوة تخطوها . وقد أمر الله أشرف
 الخلق وسيدهم محمد بن عبدالله ، أن يستشير قومه . وأين
 أنت من هذا المقام الأسمى ؟ وإذا كنت تأنف أن تشبه
 بالنبي الكريم ، فتلك مسألة أنت تعرف سوء مغبتها .
 إنك لم تدع في المدينة رطباً ولا يابساً ، ولم يبق في الناس
 إلا رمق خافت تريد اليوم أن تأتي عليه . إن العلماء قرروا
 وقف الدروس في المسجد وإغلاقه ، حتى يحكم الله بيننا
 وهو خير الحاكمين . ثم همّ الشيخ والعلماء بالخروج فتشبت
 بهم عثمان نجدا . وهو يقول في تعلم الحبيث اللئيم ، الذي
 يريد أن يؤجل الضربة إلى فرصة قريبة : هذا أمر مراد بك
 الكبير وليس لي فيه يد ، وسأرسل إلى القاهرة اليوم رسولا
 لأرى رأيه في الأمر .

فأجابه الشيخ صديق : ترسل أولاً ترسل ، إننا سنذهب
 إلى بيوتنا وسنغلق أبوابها ، وسنلتجئ إلى الله مستغيثين
 داعين أن يكشف عنا وعن أهل المدينة تلك الغاشية .
 وبينما العلماء نازلون من السلم إذ هداً الجمع المحتشد حول
 الديوان ، وإذا صوت يجلجل في الفضاء خشناً مرعباً وهو
 يصيح :

خراب يا بيت خجا خراب خراب يا بيت خجا خراب
 كان ذلك صوت الشيخ على سريط ، وهو شيخ كان
 أول أمره طالباً ذكياً نابغاً بمسجد زغلول ، ثم تجرد لكتب
 التصوف وأكثر من قراءتها ، فاختلط عقله وأدركته جذبة ،
 فكان يقضى ليله ونهاره ماشياً في طرق المدينة وهو عارى
 الجسم ، إلا خرقة يلفها حول وسطه ، وكان للناس فيه
 اعتقاد راسخ ينقلون عنه كثيراً من الكرامات ، فلما سمع
 الجمع نداءه انطلق يردد ما يقول كما يقصف الرعد : خراب
 يا بيت خجا خراب !

كانت لورا تخطو إلى الثالثة والعشرين من سنها ، يزينها
 جمال فاتن وطلعة مشرقة ، وهى شقراء أميل إلى الطول منها
 إلى القصر ، معتدلة القد خفيفة الروح والحركات ، لها
 شعر ذهبي لماع كأنه إكليل من نضار توجها به الجمال ،
 وعينان زرقاوان فيهما السحر وفيهما الفتنة ، وفيهما الوداعة
 وكرم الخلق وصفاء الضمير ، وكان لها جسم بض كأنه
 البلور المذاب ، يكاد لصفائه تنعكس عليه الأشباح
 والصور . ولدت لورا في مدينة « بليموث » من مقاطعة

ديفنشير بإنجلترا . وما مر على ولادتها أربعة أعوام حتى مرضت أمها ولم ينجع في علاجها دواء ، فماتت ، وحزن عليها نيكلسون حزناً أوشك أن يقضى عليه ، وأقسم ألا يتزوج بعدها ، وأصابه شيء من الذهول كاد يكون خيلاً ، فأشار عليه أبو زوجته أن يرحل من إنجلترا ، فغادرها إلى مصر ، وأخذ يتجر في الصوف والحريير ، وترك لورا بإنجلترا عند جدتها لأمها ، فرأت فيها جدتها صورة من بنتها فشغفت بها وبذلت أقصى جهودها في تهذيبها وتعليمها ، وسافر أبوها من مصر إلى إنجلترا في صيف ١٧٩٠ فوجد ابنته وقد نضجت ثمرتها ، وبدت فيها صورة ناطقة من أمها ، ورأى أن بعده عنها في بلاد الغربية قد كدر عليه صفو حياته ، وجعله عرضة للسأم والحنين والذواجس ، فعاد بها إلى رشيد ، وأخذ يلقيها العربية ويعمل على اتصالها بينات الأسر العريقة بالمدينة .

وكانت تختلط بمحمود العسال لكثرة زيارته لأبيها للمسامرة والحديث في التجارة ، ولأنها كثيراً ما كانت تراه عند زيارتها الكثيرة لأمه أو ازبيدة بنت البواب ، وكان محمود على ما وصفنا من وسامة ورجولة وخلق عظيم ، فأحست نحوه أول الأمر بشيء من الإكبار ، كما يعجب الأطفال بأبطال القصص التي تروى لهم ، ثم زاد هذا

الإحساس قليلاً فصار رغبة في مثابته ومجالسته والحديث معه . ثم نما فصار شغفاً بالتحديث عنه والإكثار من ذكره ، حتى كادت تسم خادمتها الحاجة مبروكة ، ثم انقلب هذا الإحساس ولوغاً وحباً بالغت في كتابته ، واستعانت بكل ما تستطيع المرأة من رياء لكبته ودفنه في صدرها ، فلم يره أحد ، ولم يشعر به أحد ، وبقى سرّاً غامضاً في سويدائها ، لا تبوح به إلا لأحلامها ، ولا تهمس به إلا لوسادتها ، حينما تتقلب على سريرها قلقة تتمنى الأمانى وتتوجس العقبات : لم تسمع أن مسيحية تزوجت بمسلم ، وهى لا يمكن أن تفرط في دينها من أجل حب ، وإن كان قاتلاً . ثم إذا جاز في الإسلام أن يتزوج المسلم بمسيحية ، فمن أين لها أن تعلم أن أباهما سيرضى عن هذا الزواج ويباركه ؟ وإذا رضى أبوها فهل يحبها محمود كما تحبه ؟ وهل يطغى على المأثور من العادات في سبيل ضمها بين ذراعيه ؟ إنه لم ينظر إليها نظرة مربية ، ولم تطفر منه كلمة فيها أقل تورية أو تلميح ، وكل ما في أمره أنه يختلط بالأسرة اختلاط الصديق الوفي الطاهر القلب ، الذى يجرى على سجيته ولا يبدو في كلماته أو لمحاته أو أعماله إلا اللطف والحنان ، إنه لم يعرف الحب ، ولم تهتز له أوتار قلبه ، إنه ملك كريم ، والملائكة لا يعشقون .

شغفت لورا بمحمود وكنمت غرامها ، وأصبحت
تعلل نفسها برؤيته بين الحين والحين ، فطلبت إلى أبيها
أن يدعو لوليمة عيد ميلادها ، واجتهدت في أن تجعلها
حافلة بالألوان متقنة الطهو ، فقضت النهار كله مع مبروكة
وخادمها عبد الدايم في إعدادها ، وأكثرت من أنواع الكعك ،
وتأنقت في عمل « البودنج » حتى إذا جاء وقت العصر
تفرغت لزينتها ولبست أجمل ما لديها من اللؤلؤ . أذن مؤذن
جامع « الإدفيني » للمغرب ، اتجه « نيكلسون » إلى داره
حزيناً مفكراً ، حتى إذا قابلته لورا أخفى ما في نفسه وغمرها
بالعناق والقبل ، وقال باسمياً :

— ماذا صنعت لنا سيدة الدار في هذه الليلة ؟ إني
أشم روائح مشبهة لألوان مختلفة ، وأكاد من السرور والجوع
ألهم السيدة الطاهية قبل أن ألهم ما طهته من أصناف
الطعام .

— إن السيدة الطاهية تحكمت اليوم في مال أبيها ،
وبذرت فيه تبذيراً .

— إن الأب والمال لك يا فتاتي الحلوة ، فافعلی بهما
ما شئت .

— نحن هنا يا أبي في الشرق موطن الكرم وحسن الضيافة ،
وقد أردت أن أحاكي زبيدة فيما تصنع من ولائم ، فأكثرت

من الألوان وخاصة بعد أن دغونا محموداً العسال . أوعدك بالحضور يا أبي ؟

— إنه أجاب مغتبطاً مسروراً . هذا الشاب أحبه كما أحبك يا لورا ، لم أرفيه منقصة ولم أقع له على زلة ، ففيه الشهامة والصراحة ، والصدق والغضب للحق ، ونصرة الضعيف . إنه شهم يا لورا ، وطالما تمنيت لو يكون لي ولد مثله .

وهنا سمعت دقات على الباب ودخل محمود فحياهما ، وهنأ لورا فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وصاحت بخادميها أن يعدا المائدة . وكان نيكلسون بادی السرور والمرح ، كثير النوادر والنكات ، مسرفاً في الضحك ، أما محمود : فقد استولى عليه وجوم عجز عن إخفائه ، وحاول كثيراً أن يندمج في الحديث والضحك فظهر تكلفه ، وبان تصنُّعه .
فقال عليه نيكلسون قائلاً :

— ما بال بطلنا الليلة منقبض الأسارير على غير عادته ؟
— هذه الحوادث التي جرت اليوم أزعجتني .
هذا يا بني يحدث في كل يوم حتى اعتادته النفس ، ولو حزنا لكل ما نراه لقضينا العمر غمًا وأسفاً . لا يا بني ؛ أظن أن شيئاً آخر يحزنك ، فإني ما رأيتك إلا باسمًا مستبشراً ، وهذه ليلة لورا فكان عليك أن تكون فيها على أحسن ما تكون .
— الحق أن هناك مسألة تنغص على حياتي كلها ، ولست

بغريب منى يا نيكلسون . ولا أعدّ لورا إلا أختاً لي لا يكتم
 دونها حديث . لقد برح بي حب بنت خالتي زبيدة .
 وكثيراً ما كاشفتها بهذا الحب وهي تروغ منى وتلتمس
 المعاذير . حتى إذا كدت أياس منها . وأياس من نفسى .
 ذهبت إليها فى هذا الصباح لأظفر منها بوعده أو خيال من
 وعده . فلم أنل منها إلا المماطلة والتسويف : والإحالة
 إلى الأقدار .

سمعت لورا ذلك فأحست بقذيفة تنفجر فى قلبها فتذهب
 به بدداً ، فشخصت عيناها فى ذهول ، وأوشكت أن يغمى
 عليها ، لولا عزيمة جبارة انتشلتها من يد العواطف الثائرة .
 ثم نظرت إلى محمود فى شغف وألم وحسرة ، وقد طارت
 آمالها مع الرياح ، ودك ما بنته من الآمال والأحلام دكاً ،
 ورأت أن قلب حبيبها قد شغل عنها بسواها ، وأنه لم يبق
 به زاوية صغيرة يلجأ إليها غرامها العنيف القاتل ، وأن من
 عجائب القدر أن يشغف محمود بزبيدة أحب صديقاتها
 إليها ، وأقربهن إلى هواها وعطفها وحنانها . إن حبها له
 يحملها على صرفه عن زبيدة والضن به عن أية امرأة كيفما
 كانت ، ثم إن هذا الحب نفسه وما فيه من حنان ، يفرض
 عليها أن تبذل كل ما فى قدرتها لإسعاده وهناءته ، وإن
 بسعده إلا أن ينال يد زبيدة ، فهل يدفعها حبها إلى التضحية

بأمان حبها ؟ وهل يستطيع ذلك الحب أن يبلغ ذروة الشرف فيكم ناره في قلبه ، ويقضى على الغيرة الطبيعية التي تمزقه . ويقنع بأن يرى حبيبته دائماً سعيداً ! إن اجتهاد الخيب بالإغراء وسيلة رخيصة لا تليق بحبها الطاهر ، والحب الذي لا ينال إلا بغمز العيون ومضع الكلام ، قليلاً ما يدوم .

نظرت لورا إلى محمود وهذه العواطف الجارحة تعتاج في نفسها ، ولكن عزيمتها أبت أن يظهر منها أى أثر على وجهها . وقالت :

- مسكين يا محمود ! ! لم أعرف أنك متعلق بزبيدة ، ولكنى أعرف أنها تهيم بك ، وتكيل لك الثناء والمدح كيلاً .
- يظهر أن الثناء غير الحب . ويظهر أن شيطاناً عنيداً يتحكم في رأس زبيدة . ويحذرهما من التزوج بى .
- هذا عجيب ! إن مثلك يا محمود تتمناه وتشرف به أية فتاة رشيدة .

- الذى يهمنى أن أعرف هذا السر الذى يحول بينها وبينى .
- مسكين يا محمود ! ثم قالت وقلها يكاد يتقطع حسرة وألماً : سأكون سفيرتك فى هذا الأمر يا محمود ، وسأبذل جهد الأخت الشقيقة حتى تفوز بأمنيتك . دع الأمر لى فإننا فى هذا المجال أمهر من الرجال وأشد تأثيراً .

— جزاك الله خيراً يا لورا ، وأرجو أن توفى حيث خبت
وتقطعت حبائلي وأشراكي .

وهنا أطل نيكلسون من الناقدة ، فرأى في الشارع طوائف
من الناس يلغظون ، فظن أنهم يتحدثون في شأن عثمان
نحجا ، ولكنه سمع أحدهم يقول : « إنه جاء من الإسكندرية ،
ويقال إن السيد محمد كريم هو الذي أرسله » فظهر عليه
الاضطراب ، وبرقت عيناه واصفر وجهه ، وقال لمحمود :
يظهر أن الواقعة وقعت ، وأن شيئاً جلالاً حدث بالإسكندرية .
هلم يا محمود لنعرف جليلة الخبر . في وداعة الله يا لورا ،
وسأعود بعد ساعة .

ارتبكت لورا وظهر عليها الخوف ، وألحت على أبيها
أن يكشف لها عن حقيقة الأمر ، ولكنه أسكتها بقيلتين ،
وأثار شكوكها بدمعتين سقطتا على خديها ، وانصرف
مع محمود مسرعين .

أخذ محمود يسأل المجتمعين عن سبب ضجيجهم ،
فقال له أحدهم : إن صديقاً أكد له أن الإفرنج نزلوا
الإسكندرية وامتلكوها ، وأن رسولا أرسله السيد محمد كريم
محافظة الإسكندرية إلى عثمان نحجا ليخبره بالأمر ، وأن
الناس يذهبون أفواجا إلى الديوان .

فأسرع محمود ونيكلسون إلى الديوان — وكان الزحام

حواله شديداً - فاخترقا الصفوف حتى دخلا ، فرأيا عثمان
 نجبا ومعه الأعيان والتجار - لأن العلماء أبوا أن يستجيبوا
 لدعوته - وقد جلسوا وهم صموت يبدو عليهم الذعر والخيرة ،
 ورأيا رسول السيد محمد كريم واقفاً أمامهم . فاتجه عثمان
 نجبا وقد جف ريقه وارتعدت أوصاله وقال للرسول :
 - نبئنا بنجر هذه الداهية مفصلا . فقال :

- وصلت بالأمس إلى مياه الإسكندرية عمارة فرنسية عند
 مطلع الفجر ، فلما ارتفع النهار رأها أهل الثغر وقد غطت
 سفنها مياه البحر ، ولكنها لم تقف بالميناء بل اتجهت إلى
 ناحية العجمي ، فأرسل السيد محمد كريم طوائف العربان
 إلى هذه الجهة ، فرأوا أنها أخذت تنزل الجنود بالزوارق
 عند المكس بعد منتصف الليل ، حتى إذا تجمع الجيش
 سار في ثلاث فرق نحو الإسكندرية . وحاول بعض عربان
 الهنادى مناوشة الجنود فلم يفلحوا إلا قليلا . وجمع السيد
 محمد كريم كل رجاله وجنوده فانهزموا لقلة عددهم وسلاحهم ،
 وقدم مدافعهم وتهدم حصونهم . ودخل الإفرنج المدينة
 في صباح اليوم بعد أن قاومهم الأهالي فمزقوهم بقذائفهم .
 أما رئيسهم : فيدعى : نابليون ، وهو شاب صغير السن
 نحيف الجسم ، ولكن جميع قواده يبجلونه ويخضعون له
 خضوع العبيد للسيد . وهو يدعى أنه صديق الدولة العثمانية ،

وحبيب الإسلام والمسلمين . وأذنه لم يأت إلى مصر إلا لإيقاظ أهلها من ظلم المماليك . ويبلغ جيشه نحو الثلاثين ألفاً . ومعهم من آلات الحرب ما لا عهد لنا به . وقد أظهر السيد كريم الخضوع لنا بليون وشرع يساعده في الظاهر في جمع الخيل والجمال ، ودعوة العربان إلى مناصرته . وأرسلني إليكم سرّاً لتأخذوا حذركم وأسلحتكم وتحصنوا المدينة . وتجمعوا الجنود والأهلين للقاء هذا الطاغية . فقد سقط جيشه على رشيد في أي يوم . فقال عثمان خجاء :

— لا بد من المقاومة والاستماتة في الدفاع . وربما استطعنا أن نأمن هؤلاء الإفرنج درساً لا ينسى .

فقال السيد محمد البواب ، وكان شيخاً في الخمسين فارح الطول متين بناء الجسم ، جريئاً شجاعاً : إن حصون المدينة ضعيفة وأسوارها مهدمة ، ومحال أن يستطيع تقويتها في زمن قصير .

فقال خجاء غاضباً : هذا دأبكم دائماً يا أبناء العرب ، لا تثبتون على الشدائد .

... نحن أثبت على الشدائد من الجبال . ولكننا نحمل الآن أوزار ظلمكم وعيشكم بشئون البلد . أتظن يا أغا أن في المدينة رجلاً واحداً يرضى أن يشد أزره في قتال ؟ لقد

زهنتهم في الحياة ، وأخذت في نفوسهم البصوثة وحب الوطن ،
 إنما يدافع عن وطنه من يشعر أنه ملئى صباه ومصدر
 مجده ، ومقر سعده وموئل حرته ، وأن ما فيه من أرض
 وماء وهواء ملك له ولسلأته من بعده ، أما من يعذب في
 وطنه ويحرم خيراته ، ويساق إلى العمل كما تساق البهائم
 لينعم غيره وهو جائع ، فلن يعرف معنى للوطن ، أو معنى
 للدفاع عن الوطن .

فبهت عثمان أغا والتفت إلى التجار ، وقال : أهذا رأيكم
 في رجال مدينتكم ؟ فأنبرى إليه الحاج أحمد شهاب وقال :
 - إن هذا ليس عاراً على أهل المدينة ، إنما العار على من
 يطلب من المذبوح أن يدفع عن نفسه . وهنا قام السيد
 محمد البواب وقام الأعيان منصرفين خلفه ، وتركوا عثمان
 خججا يتحرق غيظا . ولو استطاع أن يقبض عليهم ويذيقهم
 صنوف التكال لفعل ، واكن اضطراب المدينة واقتراب
 الأعداء لم يدعأ له سيلا لشفاء نفسه . ومال نيكلسون في
 الطريق على أذن محمود يقول في صوت خافت : سأرحل
 الليلة فقد أعددت كل شيء ثم أسرعاً إلى الدار وأحضرا
 من يحمل المتاع إلى السفينة ، وغير نيكلسون ملابسه وتزيا
 بزى المغاربة ، وحمل في منطقتة مسدسين وأكياساً بها من
 الذهب ما يزيد على ألف محبوب . ولبست اورا حبرتها

والدموع تتساقط من عينيها ، وسارت معها إلى السفينة .
وهناك ودع نيكلسون صديقه وداع الأب الشفيق للولد البار ،
وخمس في أذنه : إذا قدمت القاهرة فسل عن الحاج محمد
السوسى بسوق المغاربة . وتقدمت لورا نحو محمود باكية
الطرف دامية القلب وهي تقول : إلى اللقاء القريب يا محمود !
ثم أقلعت السفينة وهبت الريح شمالية فدفعتها إلى الجنوب ،
ووقف محمود حزينا يقلب كفيه أسفاً ، وقد أحس أنه
كان له جناحان فرماه الدهر فيهما . ثم نظر فرأى السفينة
وقد التقمها اليم وطواها الظلام .

٤

في يوم الثلاثاء الثالث من شهر يولية سنة ١٧٩٨ كانت
رشيد كالبحر المائج المضطرب ، عصفت رياحه وتوالت
أمواجه . فكنت تسمع جلبة في كل مكان ، وترى
أفواجاً من الأهلين تساق بالسياط ، وجنوداً من الفرسان
تعدو بنحيوها هنا وهناك ، والبنادق في أيديهم يهددون بها
كل من لاذ بداره أو حاول الفرار . فقد أصدر عثمان خجا
أوامر قاسية بأن يقوم كل رشيدى بالمعاونة في تجديد الأسوار

وتقوية الأبواب والحصون ، وأن يعد كل رشيدى سلاحاً
 كيفما كان نوعه لقتال الغزاة الغاصبين ، ولم تستثن أوامره
 طفلاً ولا شيخاً همماً ولا مريضاً زميناً فكنت لا تسمع
 إلا رنات السياط على الظهور ، وقصف المدافع والبنادق
 ممتزجاً بصراخ الأطفال ، وواولة النساء .

وفي صبيحة يوم الجمعة السادس من شهر يولية ، رأى
 الناس من المآذن جيشاً يبلغ عدده نحو ألفي مقاتل يزحف
 على رشيد بعد أن غادر أدكو . وهنا أعد عثمان نجبا جنوده ،
 وكانوا لا يزيدون على مائة من الإنكشارية وبعض الباشبوزق ،
 وانضم إلى هؤلاء بعض الأهلين كارهين ، وقد سلحوا
 بالعصى والسكاكين ، وهجم الجنرال « دوجا » بجيوشه
 وآلاته الحديثة على رشيد عند الظهر ، وما كان أشد
 دهشته حين رأى جيش المماليك يفر من غير أن يجرد سلاحاً ،
 وحين رأى الأهلين يرحبون بقدمه ويحيونه تحية الفارس
 المنقذ ، أما عثمان نجبا وسليم بك : فقد كانا في الفرار
 أسرع من جنودهما ، فركبا النيل إلى دمياط .

دخل « دوجا » رشيد دخول الفاتحين ، وبقى بها يومين
 أو ثلاثة حتى قدم الجنرال « جاك فرنسوا مينو » الذي عينه
 نابليون حاكماً لرشيد ، فهرع الأعيان وعظماء المدينة إلى
 استقباله ، وأظهروا البشر والسرور ، وتلقوه بالزمر والطبول ،

وأطلت النساء من النوافذ ومن فوق سطوح الدور . يخينه بالأغريد . وسلمت إليه نتائج المدينة في حفل حافل . وقف فيه مينو فألقى خطبة مسهبة نحصها ترجمانه ، إلياس فخر ، فقال :

إن جناب الجنرال لن يتدخل في الحكم الداخلي للمدينة : ويطلب من الأعيان وكبار البلد أن يؤلفوا منهم ديواناً لتنظر في شئون الناس . ثم إنه يؤكد أن كل ما يشتري للجيش يصرف ثمنه للتجار ذهباً . ويعلن ميله وميل دولته الشديد للإسلام . وأنه سيكون أول من يذهب إلى المساجد للصلاة : وأن حكم الجمهورية الفرنسية مؤسس على الإخاء والمساواة ، وأنه جاء لينشر العدل ويبدد ظلام الجهل والظلم .

كان مينو في نحو الثامنة والأربعين من عمره ، ربة في الرجال ، غليظ الوجه ، ثقيل الملامح ، أشقر الشعر ، دب الشيب إلى فوديه قليلاً . وكان سريع التأثر ، يفعل ما لا يقول ، ويقول ما لا يفعل . سريع الغضب والرضا ، معتداً بنفسه ، كثير الزهو بذكائه ، يعتقد أن حكمة الدنيا وفلسفتها أنزلت عليه وحياً ، وأن محجبات الغيب دانت لعبقريته طوعاً . وقد أدى به ذلك الاعتقاد إلى الصلف واحتقار آراء غيره . ودعاه إلى العجلة وسرعة البت في الأمور الخطيرة بلا أناة أو تفكير أو مشاورة . فجر عليه ذلك

بغض زملائه ومرءوسيه . وسخطهم عليه والسخرية منه .
وكان من أسرة نبيلة بفرنسا . وربما زاد هذا النسب في
كبريائه على أئذاه من رجال الحملة . وربما أبطره عطف
ذبيون عليه عطفاً حار في تعذيبه المؤرخون .

اجتمع العلماء والتجار وأعيان المدينة بمنزل السيد محمد
البواب . لينظروا في هذا الحادث البخل . بعد أن صرح
مينو بسياسته . فقال الحاج أحمد شهاب : يظهر أن الله
أراد الخير لهذا البلد المسكين . فأرسل هؤلاء الفرنسيين لإنقاذه .
فقال الشيخ الحضري : أفى بعض العلماء تيمورلنك
بأن الخاكم الكافر إذا كان عادلاً ، خير من الحاكم
المسلم إذا كان ظالماً . وهنا زفر الشيخ صديق . وقال :
صدق الله العظيم « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من
أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات
إن كنتم تعقلون » .

فاتجه إليه الشيخ الحضري وقال : يا مولانا لقد سمعناه
اليوم يقول : إنه سيرك الحكم لأهل البلد ، وإنه يحب
الإسلام . وإنه سيؤدى الصلوات .

فوقف محمود العسال وقال : إني لشديد العجب من أن
أراكم ، وقد ضاع الوطن العزيز واستبيح حماه ، تسرون وتفرحون

ويبنى بعضكم بعضاً بهذا الفتح المبين والنصر المؤزر . إننا نبغض الممالك ونضج من ظلمهم وطغيانهم ، فهل معنى هذا أن نترك الدفاع عن البلد لنستريح منهم بدخول عدو جديد ؟ عار أيها الناس وأي عار أن يقال : إن رشيد لم تدفع عن حوزتها دفاع الأسود ، وإنها قابات فاتحها بالطبل والزمور ! كان علينا ألا نقبع في دورنا حتى يصلوا إلينا ، فقد قال ابن أبي طالب : ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا . بل كان يجب أن نقابلهم في الرمال المحرقة فنبيد جمعهم في الصحراء بين رشيد والإسكندرية ، ولكن لن يصلح قوم لا قائد لهم ! والأمم إباء وكبرياء ، فإذا مات الإباء وذلت الكبرياء بادت الأمم . قال هذا وخرج مسرعاً وقد عصف به الحزن والغضب ، وترك القوم واجمين ذاهلين ، وإذا صوت الشيخ على سريط يملأ جوانب الفضاء وهو يصيح : إذا ذهب الذئب وجاء الأسد ، فيا ضيعة المال والولد ! !

وبعد أيام أنشأ مينو ديواناً للأحكام عين به بعض العلماء والأعيان ، والفرنسيين والمترجمين . وأظهر في أول عهده العدل والتسامح ، وبالغ في الاختلاط بالأهلين ، فكان بيته في كل ليلة مثابة للعظماء والعلماء . وكان يتحدث في هذه السهرات عن عظمة فرنسا وقوتها ، وأنها اجتاحت

الممالك وقهرت الأمم . وكثيراً ما كان يمازح الشيخ البربر ويبادلُه النكات . وكان من بين المترجمين على مودته والتقرب إليه السيد على الحمamy أخو زبيدة من أمها ، فإنه بعد أن عين عضواً في الديوان أخذ يملأ الدنيا ثناء على الفرنسيين ، ويضع « الجوكار » وهو شعار الجمهورية على صدره فخوراً تياهاً ، حتى سماه بعض خبثاء المدينة « الأوفيسال على » . أما محمود العسال : فكان يرأس جماعة الساخطين من شبان المدينة ، وكان يجهر برأيه في حكم الفرنسيين غير هيب حتى لقد شكاه الضابط « لوى أوجست » نائب الحاكم العام إلى مينو مرات ، فكان يشفع له على الحمamy ، والسيد محمد البواب .

وكانت زبيدة في هذا الحين مريضة طريح فراشها ، فإنها منذ رفضت مكرهة خطبة محمود ضاقت نفسها عن احتمال ما هي فيه من حب ورياء ، وأمل كاذب ، فتوالت عليها الأوهام وتزاحمت الآلام . ومضت الأيام والأسابيع ، وهي لا تزيد إلا سقماً ، ولا تجد إلى الشفاء من سبيل ، وكانت تنتعش قليلاً لزيارة محمود ويعود إلى وجهها شيء من نضارة الحياة ، حتى إن أمها كانت ترجوه أن يزورها في كل يوم ، وما كان في حاجة إلى رجاء . ولم تبق أمها دواء ولا بنحوراً ولا حجاباً ولا تميمة ، إلا بذلت فيه المال الكثير

طامعة راضية ، ولكن المرض كان يطغى بزيادة ويعصف
 بشبابها . زارها يوماً محمود وقد كاد يبلغ بها النصب
 غايته . فأطفاً بريق العيون ومحا اضرة الحدود . ولم يبق
 منها إلا هيكل من جمال قديم . فنظرت إليه في شغف
 ويأس . وقالت :

— مسكين يا محمود ! إن الزهرة التي سقيتها بدمعك ،
 وأدفاها بزفراتك . وغرسها في سويداء قلبك ، وكنت
 تغار من النسيم أن يمسهما . ومن الطل أن يلثسها . ومن الشمس
 الضاحكة أن تداعب أوراقها . وكنت تباهى بها الأزهار
 وتتحدى البساتين — قد هبت عليها عاصفة هوجاء فتركتها
 هشما . واصطلحت عليها الأنواء فغادرتها حطاماً . انظر
 إلى يا محمود فهل تراني كما كنت أكون ، أو كما كنت
 تحب أن أكون : الشباب والصحة جمال الجمال ، والشباب
 والصحة جمال الروح ، والشباب والصحة جمال الحياة .
 إني أحس وأنا راقدة في فراشي أن هذا السرير يعدوني
 إلى الموت عدواً ، وأود أن أملاً عيني من كل شيء في الحياة ،
 قبل أن أفارق الحياة !!

كان محمود حزيناً مطرقاً ، يغالب دموع عينيه ويكبت
 زفرات صدره ، فالتفت إليها وقد تكلف الابتسام قائلاً :
 — أنت تفارقين الحياة ؟ هذا مستحيل ! إن الله أرحم

بعبادته من أن ينجعهم بهذه الفجيرة . إن روحك يا زبيدة
متصل بكل روح . فقلبت يرسل خيرة وانس إلى كل
قلب . فهل تضنين أن الله يطفى روحاً بها حياة الأرواح
وأمم القلوب ؟ إن زعمتي إن ذنابات اليوم فإني في جسدك تكمن
ما يتحدى العواصف والأقواء . وسراها غداً . وهي تتخيل
فوق غصنها ناضرة فتاة .

وهنا ألتقت بيدها النحيلية بين يديه وقالت : أين لورا ؟
إنها لم تعدني !

— لقد سافرت مع أبيها منذ دخول الفرنسيين . ولا أعلم
أين استقرت بهما النوى .

— إنها أجمل فتاة رأيتها خلتاً وخلقاً . ولو أنها كانت مسلمة
لكانت خير زوجة . إنها الحنان والعقل لغما في أبداع صورة
من صور الجمال . فهل نراها مرة أخرى ؟ !

— إن سفن الحياة تفترق وتلتقي في بحر العمر المائج ،
والحب كفيل بالأ يطيل الفرقة بين الشيتين .

وهنا دخلت أمها فرأتها باشة مستبشرة ، فقالت له : أنت شفاء
ابنتي يا محمود ، وكأن فيك سحراً يبعث في جسمها العافية .
فالتفت إليها محمود قائلاً : تعالى يا خالتي نتحدث في
الأمر حديث جد وصراحة . هذه الأحجية وهذا البخور
لا تفيد شيئاً ، إن زبيدة لا تشكو إلا وعكة تزول إن شاء

الله ، إذا اتخذت الوسائل الصحيحة لعلاجها ، أتماعين
في أن يراها الطبيب « شوفور » الفرنسي ؟

— أيجوز يا بني أن يرى الطبيب الإفرنجي بنى ، وأن
يكشف عن جسمها كما يفعل بالرجال ؟

— كان يقول لنا شيخنا الحضرى : « إن الضرورات
تبيح المحظورات » وسلامة زبيدة من أشد ضرورات الدنيا .

أنا ذاهب لأدعوه . ثم انطلق كما ينطلق السهم وعاد بعد
ساعة ومعه الطبيب « شوفور » وهو رجل قضى برشيد أكثر

من عشر سنوات ، وعرف أهلها واختلط بأسرها . فلما
فحص زبيدة اتجه إلى محمود وقال : إن حال زبيدة

لا يقتضى الانزعاج بتاتاً . إن كل أجهزتها سليمة طبيعية ،
ويغلب على ظنى أنها مصابة بمرض الأعصاب ، وهى تحتاج

إلى الهدوء وإلى كل ما يبعث السرور فى النفس ؛
وسأرسل لها دواء أرجو أن يكون شافياً . ثم ضحك وقال :

لا تخافوا شيئاً إنها بخير . وبعد أن أطرق إطراق المفكر
قال : أظن أن تغيير الجو الذى هى فيه ، والسفر إلى مدينة

أخرى سيكون لها أشنى من ألف دواء . فقالت أمها :
— إن خالتها زوج السيد أحمد المحروقى بالقاهرة قد أرسلت

منذ يومين رسالة تتشوق فيها إليها وتلح فى طلبها .
— هذا خير ما يكون . وبالقاهرة من أشهر أطباء الحملة

الطبيب « ديجنت » ، فلو توصلتم إلى أن يراها لشفائها في أقرب وقت .

ثم انصرف الطبيب بعد أن ترك وراءه في الدار روحاً من الأمل والابتهاج ، ورأت نفيسة ووافقها محمود وجوب سفر زبيدة إلى القاهرة ، وأقنعت الأم السيد محمداً البواب بذلك فافتتح . وكانت سفينة عظيمة محملة بالأرز على وشك السفر ، فأعدت بها غرفتان ، وسافرت بها زبيدة وأخوها على الحماي . وبعد سفرها أحس محمود بالوحشة والقلق ، وضايقه جواسيس الفرنسيين ، فوطد العزم على الرحيل إلى القاهرة ، فسافر إليها بعد عشرة أيام .

٥

حينما جاوزت السفينة بنيكلسون وابنته لورا معالم رشيد ، أحست لورا بكثير من الحزن على فراق وطنها الثاني ، وموطن حبيبها الأول ، وذكرت أيام سرورها ومجالس البهجة والأنس بين صديقاتها ، وتفتت قلبها حسرة على فراق محمود ، لأنها رأت في لحظة أن صروح آمالها قد تهدمت مرتين : مرة بانصراف هواه إلى زبيدة ، ومرة بتلك الضربة القاسية التي قضت بتفريقهما وحرمانها أن تتمتع بمشاهدة وجهه الوضاح ،

وسماع حديثه الساحر . وجلس نيكلسون مهموماً تفكيراً
كثير التلق . وأخذ يستحث نفوسه على الإسراع ونشر
جميع القنوع . ويمينه الأيمن إذا سبق الريح ولم يعرف .
لأنه كان يريد أن يصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة
إليها . وصلت السفينة إلى شاطئ بولاق بعد سبعة أيام .
فنزّل نيكلسون ولورا واستأجرا حميراً خملتهما وحمل أمتعهما
إلى خان بالقرب من مشهد سيدنا الحسين . حتى إذا استقرا
فيه يومين . كان نيكلسون قد اهتدى إلى دكان صغير
بسوق المغاربة وضع فيه قليلاً من البضائع . واستأجر داراً
صغيرة بالكحكيين فانتقلا إليها . وحينما وضع نيكلسون قدمه
بالقاهرة رأها في هرج . واضطراب وذعر . فقد وصل
إليها الرسل الذين بعث بهم السيد محمد كريم إلى مراد بك ،
وعقد اجتماع بقصر إبراهيم بك حضره مراد بك وأبو بكر باشا
والى العثمانيين . وقواد المماليك ، وكبار العلماء ، وفي هذا
المجلس أظهر المماليك الغرور والاعتداد بالقوة ، فقرروا
سجن قنصل فرنسا وجميع التجار الفرنسيين بقلعة الجبل ،
وأن يستعد مراد بك لتسفر لمقاومة الفرنسيين ودحرهم قبل
أن يصلوا إلى القاهرة . وفي اليوم التاسع من شهر يولية زحف
مراد بك من الحيزة . وكان بالجيش كثير من المدافع والبارود ،
وقد بلغ عدد جنوده من فرسان المماليك ومشاة الإنكشارية

ما يزيد على ثمانية آلاف . وصحبه في النيل نحو خمس وعشرين سفينة مسحة . يقودها على باشا انطرابلسي . ونحو خمس وثلاثين من السفن التي تحمل الجنود وذخائر وأسلحة . وبقى إبراهيم بك الكبير معسكراً في بولاق في ألفين أو أكثر من المماليك . ينضم إليهم بعض الجنود المرتزقة والعربان والأهلين المتحمسين . ووصلت الأخبار بعد أيام بهزيمة مراد بك في موقعة شبراخيت ، واحترق ذخائر بتديفة ألقمها العمارة الفرنسية على إحدى سفنه ، وعلم أهل القاهرة أن طلائع التمرد بدت في جنود نابليون . لطول الشقة وقلة الغذاء ، وشدة الحر وقحول الأرض ، حتى وصلوا بعد جهد إلى قرية أم دينار في اليوم التاسع عشر من يولية ، ورأوا الأهرام شامخة متحدية . وفي اليوم التالي رأوا جيش المماليك على ضفة النيل اليسرى . وقد امتدت صفوفهم بين إمبابة وسفح الأهرام ، وكانوا في نحو أربعين ألفاً ، وكان الفرنسيون في نحو ثلاثين ألفاً . وهنا وقف نابليون يستحث جنوده ، ويشير إلى قمم الأهرام وهو يقول قولته المشهورة : « إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم » .

ولكن الأهرام التي سمعته أرسلت إليه نظرة ساخرة من مؤخر عينيها . ثم ابتسمت في ازدراء وأنفة ، هذا المخلوق

الذى توهم أنه يستطيع أن يخرق الأرض ، وأن يبلغ الجبال
طولا .

خرج نيكلسون صباح اليوم الحادى والعشرين إلى معسكر
إبراهيم بك ببولاق مع طائفة من المغاربة ، فرأى الطرق
وقد ازدحمت بالذاهبين إليها لأن جميع المتاجر والحوانيت
بالتاهرة أغلقت فى هذا اليوم ، ولم يبق بها إلا النساء
والأطفال والشيوخ . وبدأت المعركة بين الفرنسيين وجيش
مراد بك عند الظهر ، وقتك الفرنسيون بالماليك ، وتم لهم
الغلب عند الغروب ، وفر مراد بك إلى الجنوب ، وتقدم
نابليون ببعض قواده حتى وصل إلى قصر مراد بك بالجيزة ،
وكان قصراً فخماً رفيع البنيان ، ثمين الأثاث والرياش به
كثير من مخازن الزاد والذخيرة . ولما وقعت الواقعة رجع
نيكلسون مع الراجعين والهموم والأحزان تخيم على الجموع ،
والذعر يعصف بالقوم عصفاً .

ذهب نيكلسون إلى داره فطرق الباب ، فأسرعت لورا
ففتحته وهى ترتعد من الخوف ، وقد طار الدم من وجهها .
فلما رأت أباهما رمت بنفسها بين ذراعيه ، ولم تستطع أن تحبس
عاصفة من البكاء كانت قد كبحتها طول يومها فضمها
أبوها إلى صدره فى رفق وحنان وتركها تبكى لتروح عن
نفسها وتخفف من أعباء أحزانها ، ثم أخذت تضحك

كالمحموم ، وتملاً وجه أبيها قبلاً ، حتى إذا هدأت النوبة التفتت إلى أبيها كالمترسة وقالت :

— أنت بخير يا أوى ؟

— بكل خير أيتها الفتاة المحبوبة المعربدة ، الباكية

الضحكة .

— إن أفواجاً من الناس مروا منذ لحظة من الحارة وهم

يلطمون وجوههم ويصيحون : يا لطيف . . يا لطيف . . !

— ومن أحوج منهم إلى الاستغاثة بالله يا فتاتى ، بعد أن

قضى الأمر وامتلك الفرنسيون مصر ؟ !

— انهزم المماليك ؟ !

— شر هزيمة ! فقد هجم مراد بك بنحو خمسة آلاف

من فرسانه على فرقة « دوجا » فصدته مدافعها ، ثم هجم

على فرقة « ديزيه » وكان هجومه شديداً ، فحصد ديزيه

المماليك حصداً ، فانقلبوا إلى فرقة « رينيه » فقابلتهم بنار

حامية ، وهنا ثبت المماليك وزلزل الفرنسيون زلزالاً شديداً ،

وكانت المدافع تقصف كالرعد ، ودخانها يسد الأفق ،

ولكن الفرنسيين صبروا وصابروا حتى حصروا المماليك بين

فرقتي « ديزيه » و « رينيه » فأخذهم الموت من كل جانب ،

وقذف كثير منهم بأنفسهم فى النيل واستطاعت شرذمة

قليلة أن تفر مع مراد بك إلى الجنوب ، بعد أن أحرقوا

سفنهم ، فسقطت في يد الجيش كذبة . واستولى الفرنسيون على مدافعه وأسلحة ومخزنته . وكانت النكبة ماحقة . أما إبراهيم بك وممايكه بالشاطئ الشرقى : فقد فروا بأرواحهم وذهباثرهم إلى بلبس ثم إلى الشام . عندما تبينت خم الخزيمة . ولا أدري لم فرق المماليك جيوشهم على الشاطئين ؟ ولم تهاونوا فلم يدهموا نابليون في طريقه بين الإسكندرية ودمهور . حينما كان الجوع والظما والقيظ قد فكك عزائم الجنود وأوهن قواهم ؟ !

... يا للخيبة ؟ لقد كان مراد يظن أن ضربة من سوطه تكفي لسوقهم إلى بلادهم !

— إن المماليك متنافرو القلوب مفككو العزائم . وقد استنادوا إلى الراحة منذ عهد بعيد وأهملوا الاستعداد لكل مفاجأة . ثم إنهم اعتادوا الحرب على نمط قديم . فلم يستطيعوا الوقوف أمام فنون أوروبا وآلاتها الحديثة .

— وأين نابليون الآن ؟

— نائم يا حبيبي ملء جفنيه ، على سرير مراد بك بعد أن ملأ بطنه من شهي طعامه وشرابه . وسيدخل القاهرة غداً فاتحاً منصوراً .

... مساكين هؤلاء المصريون ! لقد أصبحوا نهية لكل

ناهب . ولم جاء نابليون إلى مصر يا أبي ؟

— جاء نيسد على إنجلترا ضريق نند أو ليفتح الخند
 كذا يزعم . ثم ابتسم ابتسامة حزينة : وقال عجب شآن
 هذا لرجل المغامر ! كيف يترك أوروبا الآن ومراجلتها تغني
 بالثورات والثمن والحروب . ليطوح بجيشه في بلاد بعيدة ،
 بينها وبين فرنسا بحر يتحكم فيه الإنجليز بأساطيلهم ؟
 والأدهى والأمر أزه ضمن الخلود في مصر قبل الوصول إليها ،
 فأحضر معه طوائف من العلماء والفنانين في أكثر شعب
 العلوم والفنون .

— وهل تغضى عنه إنجلترا . يا أبى ، وتترك له الجبل
 على الغارب ، يتحكم في بلاد الله كما أراد ؟
 — سرى أيتها السياسية الخطيرة . ثم قرص خدها في حنان
 وقال :

— ولو كنت في كرسى « وليم بت » فماذا كنت تصنعين ؟
 — لا تسخر منى يا أبت ، فلو كنت في كرسى وليم
 بت لدرست الموضوع من جميع أطرافه ، وقررت ما يهدىنى
 إليه رأى . بعد استشارة رجال الجيش والأسطول .
 — وإذا هداك رأىك بعد كل ذلك إلى ترك نابليون ،
 أتركيه ؟

— أتركه ولا أدع عينى تفارقه حتى يحين حينه ، وحتى
 يفشل لنفسه جبلا ليشنق به رقبتة .

- حقاً إنك إنجليزية إلى أطراف بنانك ؛ إن إنجليتوا
 لن تغضى طويلاً عن رجل يريد أن يعث بسيطرتها على البحار .
 - والمصريون ! أينامون على الضيم ؟
 - إن المصريين سيكونون أشد وبيلاً على الفاتح من الإنجليز ؛
 لأن دخول الفرنسيين في نظرم ليس مشكلاً وطنياً فحسب ؛
 وإنما هو مشكل ديني قبل كل شيء . . وقد ظن نابليون
 أنه يستطيع أن يضحك من ذقونهم بالمشورات التي يعلن
 فيها أنه يحب الإسلام ويغض المسيحية ؛ ويدين بالاحترام
 والطاعة للدولة العثمانية . رأيت اليوم طالباً من الأزهر يقرأ
 منشوراً من هذه بين جمع حافل من إخوانه ؛ فلما انتهى
 من قراءته قال ساخراً : ما شاء الله ! إن الشيخ الشرقاوى
 سيجد له منافساً في مشيخة الأزهر . وقال ثان : ما أحقرها
 حيلة ! إنه يبيع دينه ليلتهم مصر ، ثم يظن أننا نصدق .
 وقال ثالث : هنياً للمسيحية حين نقصت واحداً ، ويا وينتنا
 للإسلام بزيادة هذا الواحد !
 هذه يا حبيبي نفسية هذه الأمة الخادثة الوداعة . إن
 فيها ذكاء مكبوتاً ، وفيها بطولة مدفونة ، وهي كالنار
 تحت الرماد تضطرم وتشتري إذا مستها جائحة في دين
 أو عرض أو وطن ، فاصبري قليلاً فترى كثيراً .
 - كيف حال محمود العسال يا ترى في وسط هذه العواصف؟

— إني لشديد الخوف عليه ، فإنه عظيم الأنفة قوى
الشكيمة ، مخاطر في حب وطنه .

— لا تخف عليه يا أبى ، فإنه إلى ذلك حازم حذر ،
لا يضع قدمه إلا حيث ترى عيناه . آه ! لقد كانت أيام
رشيد هائلة سعيدة ، ولقد لقينا فيها أهلاً بأهل ، وأوطاناً
بأوطان .

— إن نظام الكون مؤسس على الإعادة والتكرار ، فالشمس
تعود ، والقمر يعود ، وفصول السنة تعود ، فهل من البعيد
أن نعود كما كنا إلى رشيد ؟
— وماذا ستعمل الآن يا أبى حيال هذه الكارثة المصرية
الإنجليزية ؟

— سأخدم وطنى ، وسأخدم مصر بكل ما فى مكنتى
من فكر وقوة وحيلة ، وسأنتظر ما تجيء به الأيام .
دخل نابليون القاهرة واستقبله علماءؤها وأعيانها بما يستقبل
المغلوب الضعيف غالبه القوى الظافر ، ونزل بيت محمد
الألئى الكبير ، وكان قد تم بناؤه وتأثيثه قبل الحملة بأيام ،
وأظهر البشر والمجاملة والعطف على المصريين ، ورأى أن
يجتذب إليه العلماء وكبار البلد ، فألف منهم ديواناً للأحكام ،
وأغدق عليهم ، مدعياً أنه يدع للأمة حكم نفسها بنفسها ،
ثم عين من قواده حكاماً لأقاليم الوجه البحرى : وترك « دوجا »

يتعقب مراد بك بالصعيد . وكان نيكلسون يختلف في كل يوم إلى قهوة مجاورة للأزهر ، ليأتمظ الأحاديث ، ويتعرف نفوس الشعب . فكان لا يسمع إلا سخطاً على الفرنسيين . وسخرية من وعودهم ، وحنقاً على العلماء وعلى كل من يمد يداً لمعونتهم . وفي ذات يوم دخل القهوة حشد من طلاب الأزهر ، يتقدمهم الشيخ إسماعيل البراوى . وهو عالم أزهرى ضخم الجثة . عرف بالجرأة والسلطة وبغض الفرنسيين . فما جلس الشيخ حتى صاح : أذفت الآفة ليس لها من دون الله كاشفة . أسمعتم الأخبار اليوم ؟ إنها كارثة الكوارث . وقاصمة الظهر طؤلاء الفرنسيين ! لقد سمع بعض الناس اليوم من أحمد الزرو التاجر بوكالة الصابون ، أن عمارة إنجليزية حطمت أسطول الفرنسيين بأبى قير فى الثامن عشر من شهر صفر وقتلت قائده وكثيراً من بحارته . حتى لم يبق منه إلا أربع سفن صغيرة . فشمّل الفرح كل مكان ، وهبت رياح الثورة فى كل إقليم ، والآن ماذا بقى لؤلؤاء الفرنسيين إلا أن نصيدهم كما تصاد الفيران ؟

فقال أحد الحاضرين : إننى سمعت أن رئيسهم ذهب مع جيشه لمحاربة إبراهيم بك فى الصالحية . فقال الشيخ البراوى : لا بد أن يسرع إلى القاهرة ،

وإذا كان بالظاهره رجل حقاً يحبون دينهم ووطنهم : فإنه لن يبقى بها يوماً أو بعض يوم .

فقبلت وجوه الحاضرين ، وصاحوا : نحن معك يا شيخ إسماعيل . ولا بد من استئصال شأفة هؤلاء الغزاة .

— وهنا أسرع نيكلسون ليبلغ لورا الخبر السار . وبعد

أيام قدم نابليون من الغزو ، فبهت حين ألقى إليه خبر دمار الأسطوب . ثم عاد إلى جلده واستخفافه بالشدائد .

وأراد أن يهون الكارثة على الجنود ، فخطب في قواده خطبة حماسية جاء فيها : « إذا قضى علينا أن نبقي هاهنا بمصر وأن

نعمل المعجزات ، فلتبق حيث نحن صلاباً غلابين ، وإذا قضى علينا أن ننشئ مملكة في الشرق ، فلتنشئها أشداء

فاتحين ، وإذا فصلت البحار بيننا وبين بلادنا ، فإنه ليس ثمة بحار بيننا وبين إفريقية وآسيا . ولا نزال في عدد

وعدة ، وفي استطاعتنا أن نتخذ من أبناء هذه البلاد جنوداً أقوياء ، وفي استطاعة "شامبي" و"كونتية" أن يمدانا

بما شئنا من ذخائر وعدة ، فلنكن عظماء ، ولنعمل العظام ، ولنرفع رءوسنا ، ولنهزأ بالزعازع ، فقد يكون القدر قد كتب

لنا أن نغير صحيفة الشرق ، وأن نضم أسماءنا إلى أسماء عظماء الرجال الذين خلد التاريخ ذكراهم . ثم أراد أن يظهر أمام

المصريين بمظهر القوى الذي لا تنال منه الخطوب ، فاحتفل

بفتح الخليج احتفالاً باهراً ، ثم بالمولد النبوى ، ثم بعيد الجمهورية الفرنسية .

٦

وصلت السفينة إلى شاطئ بولاق مقلة زبيدة وأخاها علياً الحمamy ، ولم تمض ساعة حتى بلغا بيت السيد أحمد المحروقى ، بالقرب من الفحامين . وكان المحروقى فى ذلك الحين رئيس التجار . وكان عظيم الثروة والجاه ، سخرى الكف نهاضاً بالأعباء ، ذكى الفؤاد واسع الحيلة . ولما دخل الفرنسيون القاهرة فر مع إبراهيم بك ، ولكنه عاد إليها واستطاع بدهائه وماله أن يجتذب إليه قلوب الفاتحين ، وأن يستعبدهم بإحسانه وإغداقه .

مدت أمينة خالة زبيدة إليها ذراعيها فى شوق وشغف ، فطوقتها بهما وهى تقول : أهلاً بزهرة رشيد الناضرة ، التى لم تتحل بمثلها بساتين القاهرة ، إن نسيم البحر الأبيض إذا تزوج بنسيم النيل الهفاف ، ولدا ذلك الجمال البارح الذى يتحدى ريشة كل رسام . فضحك السيد أحمد المحروقى وقال عابثاً :

— إنها يا زبيدة امرأة لعوب فاحذريها ، إنها تتخذ منك

وسيلة لإطراء نفسها ، والمباهاة بحسبها . ألم ترى أنها بحركة
لواحية سريعة حصرت الجمال كله في رشيد ؟ فابتسمت
أمينة ابتسامة خفيفة ونظرت في المرأة بحركة لا تحس ، وقالت :

— هذا دأبك دائماً ، تسيء التأويل ، وتوجه الكلام

إلى غير وجهه . وهل لامرأة عجوز مثلي في السابعة والثلاثين —
ثم لمحت المرأة ثانية — أن تتحدث عن جمالها ؟ ولكني أعتقد
أن رشيد وهي ميناء أقطار الشرق والغرب ، توافد عليها
النزلاء من كل صوب ، وامتزجوا بأهلها وأصهروا فيهم ،
فأخرجوا نسلاً قوياً جميلاً . إن السلالات البشرية تضعف
وتتضاءل إذا لم تختلط بها العناصر والأجناس !

— دعينا من هذه الفلسفة أيها العجوز الفاتنة ، وحدثينا
يا زبيدة عن رشيد وأحوالها . فقاطعتة زوجها متعجلة واتجهت
إلى زبيدة :

— لقد هدت رسالة أمك قواي حين قالت : إنك مريضة ،
ولكني لا أرى للمرض عليك أثراً ، فما حقيقة الأمر ؟

— لقد كنت مريضة أشد المرض ، ولكن الطبيب
« شوفور » وصف لي علاجاً وأشار على بالرحلة إلى القاهرة ،
فما كدت أقضى بالسفينة أياماً حتى أحسست ديب العافية .
— حماك الله من كل مكروه يا حبيبتي . وكيف حال

أمك وأبيك ؟

— أمّا متى فبخير . وأمّا أين فإنه كثير الوجوه والحزن
منذ دخول الفرنسيين .

وهذا قول الخروقي : أظنهم لا يظفرون بحب أهل رشيد .

— لا أدري . لقد كنت مريضة منذ دخولي . وأظن

أنهم لا يبلغون في الظلم دماغ الممالك . وهنا دخل ابن خاتبة

محمد الخروقي . وكان في وسام في التاسعة عشرة من عمره .

فحميا زبيدة وجلس وهو يلقي إليها نظرات طويلة . فيها

ذهول وإعجاب . وفيها نهم الشباب . وانفتحت أمينة إلى

الفتى والفتاة . ثم همست في أذن زوجها فهز رأسه وقال :

— نعم الفكرة ! نرجو الله أن يهيئ لنا الخير . ثم التفت

إلى ابنه وقال : هلم يا بني ، فقد آن لنا أن نراجع دفاتر

حساب اليوم .

وانشردت أمينة بينت أختها كالمشغوفة الواهية ، لأنها

أثارت في نفسها ذكريات عزيزة عندها ، أثيرة لديها .

فقد شاهدت في زبيدة صورة شبابها الغض ، الذي كان

فتنة العيون . وشرك القلوب .

ثم قالت : علمت من أمك أن محموداً العسال ياح

في زواجك وأنتك تأبين . إن محموداً شاب تطمح إليه عيون

الفتيات . ولكن للقلوب أسراراً لا تدرك . ولهاها سرائر

لا تعلم . ولعل لك آمالا تسمو بك عن رشيد وأهلها ، ولعلك

تودين أن تكوني بالقاهرة كخاتك : جديسة نساء الأمراء
والكبراء وأرباب الدولة . إنني أرحب بك يا زبيدة في هذه
الدار سيّدة مهيّرة . وأقصى أمانى أن أراك زوجاً لابني
محمد . وهو شاب كريم الخلق . رفيع المنزلة . يمهّد له
أبوه السبيل من بعده . ويمدّ له أسباب الشهرة مدّاً . ألا
تحبين يا زبيدة أن أكون أمّاً لك ثانية ؟ ! إن شمّسك
في رشيد لا يتسع لها الأفق : أما هنا فستنفذ أشعتها بعيدة
وضاعة . وسيحدث كل بيت من بيوت الأمراء والأعيان ،
عن زبيدة وجمال زبيدة .

أطرفت زبيدة وطلّ إطراقها : وجمال بخاطرها سريعاً
أن العرض مقبول ، وأن زواجها بابن المحروقي سيكون من
ورائه الثروة والشهرة ، وإلحاح العظيم ما في ذلك شك . ولكن
أين هو من محمود العسال كيفما أطنبوا في وسامته وكريم
خلقه ؟ ! لا شيء ! إن في محمود تلك الرجولة الحسنة التي
تشبهها كل فتاة ، لتكمل بها ما في أنوثتها الناعمة من نقص .
لا . . . شتان ما بين الرجلين ! ثم ما لها ولحمود وغير محمود .
إن للعرفة نبوءة يجب أن تتحقق ، وهي واقعة لا محالة إذا
أطالت لها عنان الصبر . فرفعت رأسها إلى خالتها وقالت :
يجب يا خالتي أن ننسى الحديث في الزواج الآن ، حتى
تزل تلك الغمة التي أطبقت على مصر ، وحتى نرى آخر

سفينة وهي تحمل الفرنسيين إلى بلادهم . إن زواجى بابن خالى شرف لا يناله مثلى . ولكن الزواج الآن أشبه بالضحك فى المآتم . والرقص فى بيت يحترق . فنظرت إليها أمينة نظرة الحيرة الطبة بالنساء وخداعهن . ثم تهتت وقالت : كثيراً ما يرغب الإنسان عن الثمرة الدانية ويأبى إلا أن يتسلق لغيرها ! ومن يدرى ؟ ثم ضحكت وقالت : تعالى أيتها الفتاة المقدرة المدبرة فقد أعد الطعام .

مرت أيام فسافر على الحمامى إلى رشيد . وبقيت زبيدة فى بيت خالتها . تلاقى فيه صنوف الكرامة والعطف ، وتزور بها خالتها سيدات القاهرة وكرائم أسرها .

وبينما هى جالسة ذات صباح مع خالتها إذا إحدى الخادومات تقول : إن سيدى محموداً العسال قد حضر ، وهو يصعد فى السلم . فأسرعت زبيدة إلى شعرها تسويه ، وإلى ثوبها تصلح من غضونه ، وقد دق قلبها واحمر وجهها ، ولحمتها خالتها فتهتت . ثم دخل محمود مشرقاً بساماً ، فحيا زبيدة وقبل يد خالته أمينة ، التى أخذت تصب عليه وابلا من عبارات الترحيب ومختلف الأسئلة ، فقص عليهما كل ما لديه من أخبار رشيد . وهناً زبيدة بسلامتها ، ثم اتجه إلى السيدة أمينة قائلاً : لقد أدهشنى اليوم أن أرى حوايت المدينة مقللة ، وأن أرى الناس فى الشوارع

جماعات يتهامون كأنما حزينهم أمر ، أو حلت بهم كارثة .
 - لقد توالى عليهم المظالم يا محمود ، وكانت قاصمة
 الظهر تلك الضريبة الأخيرة التي لم تترك فقيراً ولم تُبق على
 غنى . فالذى رأته اليوم مظهر من مظاهر سخطهم ،
 فإنهم إذا فدحهم ظلم أغلقوا متاجرهم والتجثوا إلى الأزهر
 يستغيثون برجاله .

- فهز محمود رأسه في حزن وألم وقال : وبمن يستغيث
 رجال الأزهر يا ترى ؟

ثم أحس أن المجلس طال به ، فتحفز للانصراف ،
 وودعته حالته وذهبت معه زبيدة خطوتين أو ثلاثا ، فنظر
 إليها نظرة طويلة وقال :

- متى يا زبيدة ؟ فأسرع إلى نجدتها عذرها الذي خدعت
 به خالتها ، فمست كتفه في رفق وقالت : حتى يخرج الفرنسيون
 يا محمود .

ذهب محمود إلى سوق المغاربة غاضباً آسفاً ، يفكر في
 هذا العذر الحديد الذي سدت به عليه زبيدة طريق الأمل ،
 وسأل عن الحاج محمد السوسى فأرشد إلى دكانه ، فرآه

مغائماً . ثم سأل عن داره فوصفت له . فطرق بابها ففتحت له الخادم خائفة مرتابة . فقد تكرر في هذه الأيام تصغل الجند على المنازل . ولما سمعت لورا صوته كاد يحن جنونها ويضطرب ميزانها . وشعرت بنار مشتعلة تدب في أوصالها . وودت لو أنها قطعت السلم بوثة واحدة . لتقع بين ذراعي حبيبها . وتغمر وجهه بالتبلى . ولكنها كبحت جماحها جهدا ما تستطيع . واستنجدت بالطبيعة الإنجليزية الرزينة . وقالت دون أن يرم صوتها عن شيء : أبى ! إني أسمع صوت محمود العسال بالسلم . فنهض نيكلسون فرحاً وصاح : أهلاً بولدى ، أية ربيع سعيدة طوحت بك إلينا ؟ لن أحس بعد اليوم ألم الغربة والنفي . ثم عانقه طويلاً وشد على يديه في محبة وشوق . وتقدمت إليه لورا تتكلف الابتسام وتجاهد عينيها ألا تهتكها لها سراً . وقالت في تلثم : مرحباً يا محمود ، إنك صورة من رشيد التي أحبها . فاليوم أراها كما هي ولا أشعر باواعة نحو أهلها . ثم جلسوا إلى القهوة بعد أن أعدتها لورا ، وبدأ نيكلسون الحديث فقال : كيف حال الفرنسيين في رشيد ؟ فأجاب محمود وقد زاد سخطه عليهم وعزم على أن يبذل نفسه في مقاومتهم ، بعد أن سمع من زبيدة اليوم أنهم الحائل بينه وبين التزوج بها : لقد أرسلوا إلينا بحاكم مضطرب الرأي . يلين مرة حتى تظنه ماء زلالاً ،

ويقتسو أخرى حتى تحسبه نار الجحيم . لم يف بوعد واحد من تلك الوعود التي ملأ بها خطبه وأحاديثه ، والرشيديون في جمهورتهم لا يثقون به ولا يلقون إليه بقياد ، وهم كتلة مخيفة من العصيان والتمرد . فقد ضرب على الأهلين ضريبة فادحة ، قوبلت بثورة صاحبة وعصيان جامع ، ولولا هذه المدافع الحديدية ما استقر لخؤلاء الغزاة أمر . وفي مساء يوم رأى أحد العلماء الذين قدموا مع الحملة - ويسمونه دينون - من برج أبي منظور العمارة الإنجليزية وهي تهجم على العمارة الفرنسية بأبي قير ، وتصلبها ناراً حامية ، وسمع أهل المدينة الضرب عنيفاً متواصلاً ، وطارت إليهم الأخبار بأن الإنجليز دمروا جميع سفن الفرنسيين ، فوثبوا من الفرح ، وطاشت عقولهم ، ومشوا في جماعات يصيحون ويهاللون ويكبرون ولم يستطع مينو أن يعمل شيئاً فأغضى إغضاء الذئب الضغن الحقود .

- حقاً إنه كان نصراً ميبناً يا محمود ، فإن هذه الموقعة ستسد الطريق بين نابليون وبلاده ، وستقضى على آماله في ضرب إنجلترا بالهند وإنشاء دولة شرقية فرنسية . وستشد من عضد الممالك الضعيفة بأوروبا وتدفعها إلى محاربة فرنسا وتحديها .

- لله الحمد والشكر . ثم قام أهل رشيد بثورة عنيفة ،

حينما وصلت السفينة التي تحمل السيد محمد كريم مصفداً
ليشتق بالقاهرة .

— إن هذا السيد بطل من أبطال التاريخ يا محمود ،
وكل جريمته عند الفرنسيين أنه جاهد في سبيل وطنه ،
وكتب سرّاً إلى مراد بك يدعو إلى صدهم ومحاربتهم .
ولقد علمت أنه لقي الموت شهماً كريماً ، وأن الفرنسيين
راودوه على أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، فأبى
في ازدياء وشمم ، وأجاب فانتور كبير تراجمة الحملة وهو
يلح عليه في قبول الفدية ، ويلحف : « إذا كان مقدراً
على أن أموت فلن يعصمني من الموت مال . وإذا كان
في الكتاب أن أعيش كان بذل المال عبثاً » ثم ضرب بالرصاص
في ميدان الرميله فلقى ربه شهيداً . فلمعت عينا محمود وقال .
إن البطولة لن تموت ، وهذا معنى قوله تعالى : « ولا تحسبن
الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

— هذا صحيح يا محمود ، أعندكم هذا في كتابكم ؟
— نعم ، وكم في القرآن من أدب وتشريع وحكمة وهداية .
ثم إن الذي يزيد في سروري ويبعث في نفسي نشوة الأمل ،
أن مينو قلق به مكانه في رشيد وأحسن بالخرج ، فقد قبض
أحد العربان على رسول له إلى كليبر حاكم الإسكندرية ،
فرأى معه رسالة ترجمها لنا أورلندو ، يلح فيها على كليبر في

إمداده بالرجال ، لأن حاميته لا تزيد على أربعمائة رجل ،
 ويخبره أن العرب يزعمونه ليلاً ونهاراً ، وأن الأهلين يشورون
 عليه لأقل سبب ، وأنهم استخفوا بسلطة الفرنسيين بعد
 نكبة أسطولهم . ثم يقول : لقد تخرجت من هنا ، فإني
 ما جئت من فرنسا لأدفن في هذه المدينة ، أو لأقوم فيها
 بجمع الضرائب .

— سمعنا أنه أحرق قرية السلمية .

— نعم ، فقد قتل بعض رجالها ثمانية من جنده ، فأمر
 بقتل كل من يحمل السلاح فيها ، وصادر جميع ما بها من
 الماشية ، ثم أضرم النيران في القرية .

— هذا أمر له ما بعده يا بني ، وسيف الظلم مفلول دائماً .
 هلم لنشهد اليوم اجتماع الناس بالأزهر . فقد أخبرني الشيخ
 إسماعيل البراوي أن مرسل الثورة يغلي بالقاهرة ، من أجل
 هذه الضريبة الحديدية الفادحة ، التي ستأتي على كل ما
 بقي عند الناس من صامت وناطق .

ثم سارا صوب الجامع الأزهر فسمعا المؤذنين وهم يؤذنون
 لصلاة الظهر ، ويتبعون أذانهم بدعوة ملتهبة إلى الثورة
 والجهاد ، فدخلوا المسجد فإذا هو يدوي بما فيه من الحشد
 العظيم ، وقد ارتفعت أصوات الغضب ، وبسرت الوجوه ،
 وأخذ كل شخص يتكلم ويسمع في آن ، وجلس إلى جانب

القبلة الشيخ السادات ، والمشايخ : يوسف المصليحي .
 وإسماعيل البراوى . وعبد الوهاب الشبراوى . وسليمان الجوسقى .
 وأحمد الشرفاوى . وهم مساعير الثورة ومؤججوها . ثم وقف
 الشيخ يوسف المصليحي ، وكان ذرب اللسان ملتهب الوطنية
 قوى التأثير ، فقال :

« يظن الفرنسيون أن مصر أفتقرت من الرجال ، وانحلت
 فيها العزائم وكلت الهمم ، وأنها شعب من نساء لا يميز فيه الرجل
 من المرأة إلا عمامة ولحية ، وأن أهلها قطيع من الغنم نام
 عنه رعاته ، وتركوه نهياً للذئاب . وهم يتندرون في مجالس
 مجونهم وعلى كؤوس شرابهم ، يجبن المصري وهلمعه من السيف
 والمدفع ، وأنه إذا رأى جندياً فرنسياً في الطريق أقعى له
 في ذلة وخنوع كما يقعى الكلب . فهل هذا صحيح ؟ » .
 فهزت أصوات جوانب المسجد صائحة في غيظ وغضب :

— كلا . كلا .

— نعم . كلا ، وكذب ما يظنون ، فإننى أرى في هذه
 الوجوه غضبة الأسود لعريتها ، وحمية الشجاع الباسل لعرضه
 ودينه . أنتم أبناء الفاتحين ، ولأجدادكم سجل من المجد
 والجهاد لا ينقصه إلا أن تنقشوا تحته أسماءكم بسلاحكم .
 فهلموا إلى المجد والشرف هلموا ، هلموا إلى الجنة والشهادة
 هلموا . فلا نامت أعين الجبناء ، ولا هدأت قلوب المعوقين

والمناققين ! لقد طاب بكم أمد الصبر فماذا بقي لكم أن تصبروا عليه ؟ لقد ألزموكم حمل شارة الفرنسيين ، وافتنوا في فرض الضرائب ، وهدموا أبواب الخارات حتى لا يعوقهم عن انجسوم عليكم في ضمة الليل عائق . هل نحن أمه محمدية ؟ هل نحن أمة جعل الله الجهاد في مقدمة فروضها ؟ أيها الشجعان البسلاء : ثوروا لكرامتكم ، ثوروا لوطنكم ، ثم ثوروا لتاريخكم ، وهنا انفجرت حماسة محمود العسال ونفدت طاقته العصبية فصاح : كفى كفى بالله عليك يامولانا ، فلن ترى منا مصر بعد اليوم إلا رجالا أرواحهم في أسنة رماحهم . ثم اتجه إلى الناس ونادى : هلموا معي إلى الجهاد . فرددت الجموع الزاخرة صوته : إلى الجهاد ! إلى الجهاد ! وتزاحموا إلى أبواب الجامع يتقدمهم محمود ووراءه نيكلسون ، وما كان يشك من رأى الأمواج المتدفقة من الناس ، في أن أيام الفرنسيين بمصر أصبحت تعد على أصابع اليدين . اشتعلت الثورة بالقاهرة وتقدم محمود الثوار ، فأخذوا سمتهم إلى مخافر الجنود الفرنسية فقتلوا عليهم ، وازدحمت بالناس شوارع الموسيقى والغورية والنحاسين وغيرها ، وجاء الجنرال « ديبوي » حاكم القاهرة ليصد الثوار مع طائفة من فرسانه ، فأطبقوا عليه ، وأصابه أحدهم بطعنة من رمحه فخر صريعاً مجدلاً ، فزادت بذلك حميتهم ، وتكاثر عددهم

بمن انضم إليهم من أرباض القاهرة ، واستولوا على
 المواقع الحصينة : كباب الفتوح ، وباب النصر ،
 والبرقية . وباب زويلة ، وباب الشعرية ، وأخذوا يحفرون
 الخنادق وينشئون الحصون ، ويطلقون منها النار على الفرنسيين .
 وأدرك الفرنسيون الخطر المحدق بهم ، فجمعوا جموعهم
 وعزموا على استئصال الثورة بالحديد والنار . وقضى أهل
 القاهرة الليل في تأهب وإصرار ، وكان محمود عيسى من
 بالخنادق والمتارس حافظاً للعزائم ، مثيراً للهمم ، حتى إذا
 بزغت شمس اليوم الثاني كان الفرنسيون قد احتلوا جميع
 المرتفعات خارج المدينة ، ونقلوا إليها مدافعهم وذخيرتهم ،
 فأرسلوا منها القذائف متتالية مرهبة على نواحي الأزهر
 والصنادقية ، والغورية ، والفحامين ، حتى أوشك الأزهر
 أن يتداعى من شدة الضرب وأن يسقط على الجماهير
 الحاشدة به . وصارت الأحياء المجاورة صورة من الخراب
 والدمار ، فهدمت البيوت ، وماتت تحت أنقاضها آلاف
 من السكان البائسين ، وطال الهول واشتد وعجز الإيمان
 الأعزل أن يقف أمام الطغيان المسلح ، فسقط في أيدي
 المصريين ودارت عليهم الدائرة ، واستشفعوا بالمشايخ عند
 نابليون أن يرفع عنهم سخطه وغضبه ، ولكنه بعد أن
 أسكت عنهم أصوات المدافع أطلق جنوده تعيث في القاهرة

كما تشاء ، وتتحكم في الناس كما تشاء ، فدخلوا الأزهر
بخيولهم وعبثوا بما فيه من كتب وخزائن .

إن نابليون كسب المعركة وقضى على الثورة ، ولكنه
قضى معها على كل أمل له في اجتذاب المصريين ، وعلى
كل عاطفة تنبض بها قلوبهم .

وخرج محمود من الثورة كالسيف المحطم ، تحطم جسمه ،
وتحطمت روحه ، وتحطمت آماله . فأسرع إلى بيت ابن عمه
يائساً حزيناً ، وانطلقت شياطين الجواسيس من عقابها تقبض
على كل من كان له ضلع في الثورة ، واعتنقت آلة الإعدام
كل من حامت حوله شبهة فقضت عليه ، ومل الفرنسيون
تكلفتهم المودة للمصريين فصارحوهم العداء ومشوا لهم الضراء ،
وعرف المصريون بعد هذه الكارثة أن الخطب والمؤامرات
شيء ، والسيف والمدفع شيء آخر .

وذهب نيكلسون إلى بيته يحمل لابنته لورا حوادث
الثورة ، وما رآه من جرأة محمود وبطولته ، وقذفه بنفسه
بين برائن الموت ، ثم زفر وقال : لقد كان بطلاً حقاً ،

ولكن ماذا تفعل العصا أمام السيف الحسام ؟

— لقد كنت أتوجس خيفة عليكما ، وكلما سقطت

القذائف من القلعة وقمم المقطم ، كنت أدخل تحت
السرير فأسجد وأصلي لكما . أهو بخير يا أبي ؟

— بخير وعافية . ولكن شعوره بالهزيمة يكاد يقضى عليه .

— هذه طبيعة الشرقيين ، فتي يعرفون أن الهزيمة دائماً

أول حافز إلى الظفر ؛ أتصدق يا أبى أنى مسرورة بنتائج

هذه الثورة ، إنها لم تنجح فى مرآى العين ، ولكنى أعتقد

أنها بلغت غاية النجاح ، وأن الفرنسيين لن يتم لهم أمر

بعدها فى مصر . لأنك إذا وضعت هذه الثورة إلى جانب

تحطيم نلسون لأسطولهم ، رأيهم فى مصر كأنهم فى بيت

يحترق ، وقد حرموا كل وسائل النجاة .

وتوالت الأيام ، وخرج محمود من مخبئه ، وأكثر من

زيارة نيكلسون ، ورأى من لورا عطفاً سحريراً شفى مريض

نفسه ، وبعث فيها أملاً جديداً . فحديثها حلو ، وخلقتها

كريم ، ومعدنها ذهب نضار . ثم هو إذا رفع إليها عينيه

رأى الجمال الهادئ المطمئن ، الذى لم يحاول مرة أن يكون

جميلاً فبز كل صنوف الجمال . كان ينصت إليها فيسمع

أدباً وحكمة ، ويتعلم كثيراً عن الدنيا وأحوالها ، والدول

وسياساتها . وكانت تنظر إليه نظرة حنانة حاملة ، فتلتقى

بها نظرتة فيحس بأريحية يكاد ينتفض لها جسمه . سمه

ميلا ، أو سمه حباً أخوياً ، أو سمه ما شئت فإنه شىء لذيذ

وكفى . أكثر محمود من زيارة لورا واصطحبها لزيارة زبيدة

كثيراً ، وكانت زبيدة تسر بلورا وتأنس بها ، حتى لقد

كانت تلتزمها لبقاء معها بيت خالتها أياماً .
 وفي صبيحة يوم قدم السيد على الحمامي من رشيد ،
 وأخبر زبيدة بأن أمها في شوق إليها . وأنها مريضة منذ
 حين . وأنها ألتحت عليه أن يسافر إلى القاهرة ليعود بها ،
 فلم تجد زبيدة بداً من السفر ، فنزلت في سفينة إلى رشيد ،
 فودعها محمود العسال ولورا بين الزفرات والتمهيدات ، ومال
 محمود على أذنها . فأجابته في ضحكة متكلفة : لم يبق
 إلا القليل !

٨

جلس مينو في صدر إيوان بيته في رشيد تحفه تلك العظمة
 الحبيبة إلى نفسه . والأبهة التي تميل إليها غرائزه ، والجنود
 والديدبانات الفرنسية تحيط بأسوار الدار شاكي السلاح ،
 في أزهى ملابسهم وأروع ما به يظهرون ، والخدم والأغوات
 يذهبون ويجيئون في اهتمام ونخشية ، يدلان على جلالة شأو
 المخدوم وشدة صرامته ، واحتفاله بصغائر الأمور .
 وكان في مجلسه ذلك اليوم الجنرال « مارمون » و « دينون »
 الأديب الكاتب الفرنسي ، و « دولوميو » الرسام ، وهما
 من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، والطبيب « شوفور » .

بدأ مينو الحديث في شيء من التضجر والسأم عما يحيط
برشيد من الثورات التي لا ينطق أوارها ، ثم هز كتفيه
وقال : عجيب أمر هذه الثورات ، إنها مع حقارتها وهوان
خطرها ، تشغل منا وقتاً كان أولى بنا أن نصرفه في
عظام الأمور .

فهز « مارمون » رأسه وقال : إننا نكاد نكون قد أخطأنا
الطريق في سياسة هؤلاء المصريين ، وقد كان عدد الجنود
الذين فمتحننا بهم مصر يمكن أن يكفي ، لو أن الطريق بيننا
وبين فرنسا بقيت مفتوحة آمنة . أما الآن ، فقد اضطررنا
إلى تشتيت هذه القوة الصغيرة في الصعيد لمحاربة مراد بك ،
ثم في جميع أنحاء مصر السفلى ، لأن الثورات لا تكاد
تنقطع فيها ، وبذلك تمزق الجيش وقتل من الجنود عدد
عظيم . وهنا قال دينون :

- ومن العجيب أن يترك نابليون هذا الأتون الملتهب
بالثورة والعصيان ، ويقطع من هذا الجيش الضئيل ثلاثة
عشر ألف جندي مع كبار قوادهم ، ليذهب لغزو سورية ؛
كأن مصر قد استقر بها كل شيء ، واستقام بها كل أمر .
فنظر مينو إلى دينون نظرة المغضب وقال :

- أنت لا تعرف نابليون . إن سر عبقريته إنما هو
في تحدى الأقدار والسخرية من الكوراث . إنه ليس

رجلا مثلك أيها الفنان الأديب . إن العقول تستطيع أن تعقل الأشياء في مدى محدود . أما أعمال العباقرة فتفوق منال العقول .
وهنا أطرق مارمون وقال :

— إن المقامر قد يلقي بما بقي له من مال ليكسب الدست !

فقال مينو :

— لا يا مارمون . إن المقامر ليست له بصيرة نابليون التي تكشف الغيب ، ثم إنكم تبالغون في شأن هذه الثورات ، ولو كنت على رأس خمسمائة جندي لأطفأتها جميعاً . ولكن هذه الدنيا تعطى السيف دائماً لصاحب المحراث ؛ ثم زفر وقال : عجيب ألا يختارني نابليون وكيلا له بالقاهرة بدل « دوجا » ، ولكن يظهر أن حماية الثغر أهم وأعظم . فأجاب دولوميو : من غير شك .

ثم انصرف القوم عدا الطبيب شوفور ، وبقي مينو مطرقاً ، فقال شوفور :

— إن سيدى يكثر التفكير ويبدو عليه القلق ، وقد لحظت منذ أيام أن صحته ليست على ما أحب له . فرفع مينو رأسه وقال :

— إننى أعيش هنا يا شوفور عيشة الأسير ، وهذا الجو المحدود أضيق من أن يتسع لآمالى ، وكلما أطلت التفكير فى أمرى برح بى الحزن واشتملنى عارض

يشبه الخيال . إنني خلقت المعظمة والمرح . أما العظمة :
فقد لقيتها هنا في صورة ضئيلة لا تكاد تتعدى حدود رشيد .
ولو أنني ملكت فرنسا كلها ما قنعت بها نفسي . وأما
المرح : فقد تركت ورائي منه في باريس ما لا يمكن
أن يعود .

-- لا بد للنفس الكبيرة والعقل الدائب المفكر من المرح
واللهو . ولو لم يغسل عبث الليل ونحوه آلام كدح النهار
وكده ، لتبلد العقل وقتله الإعياء .

-- وأين منا السبيل إلى اللهو في مدينة نصفها مساجد ،
ولأهلها عيشة الرهبان والراهبات في الصوامع ؟
-- السبيل الزواج يا مولاي .

-- الزواج ؟ وهل لرجل مثلي من أعرق الأسر الشريفة
بفرنسا ، أن يتزوج بفتاة إفريقية شوهاء ، ليس لها قدم
في المجد . ولا آباءها ذكر في التاريخ ؟ !

-- أما الفتاة الإفريقية الشوهاء فلا وجود لها في رشيد .
إن بهذه الدور التي يمر بها مولاي فوق جواده ، لآلء
بشرية لم تقذف بمثلها كنوز البحار .

أنا طيب يا سيدي وتقتضيني صناعتي أن أرى الوجوه ،
وقد رأيت من حسنها هنا ما زهدني فيما بالغ فيه الشعراء
وأبداع فيه المثالون . وأما الشرف : فإن في رشيد منه ما في

فرنسا . إن الشرف هنا لا يكون بالانتماء إلى بطل ، وإنما يكون باتصال النسب بالنبي الكريم ، وهذا خير ضروب الشرف والنبيل .

— في رشيد من الأسر من ينتمى إلى النبي محمد ؟
 — كثير جداً ، لأن أهلها من قريش نزحوا إلى رشيد بعد فتح العرب بقليل ، ولكننا نريد شيئين : الشرف ، والجمال . وهذان لا يجتمعان في رأى إلا في أسرتين : أسرة الشيخ الحارم ، وأسرة السيد محمد البواب ، فاتجه إليه مينو في شغف وقد أعجبه الحديث وقال : حدثني عنهما يا شوفور ، حدثني .
 — أما رقية وآمنة بنتا الشيخ إبراهيم الحارم : فجماهما فوق وصف الواصف . وأما زبيدة بنت السيد محمد البواب فإنها في الحق ساحرة فاتنة .

فجحظت عينا مينو وقال : هذا بديع جداً ، ولكن ماذا أفعل بمخلياتى اللاتى يخطهن العد بفرنسا وإيطاليا . إن أظافرهن لن تقنع بتمزيق جلدى !

— وأين هن منك اليوم وبينك وبينهن المهامه الفيح والبحار الحضر ؟ إن الفرنسيين سيؤسسون بمصر مملكة شرقية واسعة الأطراف ، وسيكون لك فيها الشأن الأول والملك العظيم .
 — هذا ماتحدثنى به نفسى ، وإذا لا بد من الزواج ،

وبمن أتزوج ؟ سأختار بنت الشيخ الجارم ، لأنه فوق شرفه النبوي من أكبر علماء المدينة .

– غير أن في الأمر عقبة يجب أن تذلل ، تلك أن الإسلام يحظر تزوج المسيحي بمسلمة .

– ألسنت مسلماً ؟ ألم يشهدني أهل رشيد في مسجد المحلى وأنا أقوم وأقعد حتى كدت ألث من التعب في صلاة التراويح ؟

– أظن أن هذا لا يكفي ، فإن عقد الزواج في مثل هذه الحال يجب أن تسبقه وثيقة مسجلة بالإسلام ، على أننا نستطيع أن نسأل مفتي المدينة في هذا الأمر .

فوثب مينو يصفق بيديه يدعو مملوكه الخاص « إينال » ، فلما مثل بين يديه ، أمره أن يدعو إليه الشيخ أحمد الحضري .

حضر الشيخ الحضري بعد قليل ، وهو خائف يرتعد لهذه الدعوة التي فاجأته في جوف الليل ، وأخذت شفتاه تتمتان

بالأدعية وضروب الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فسلم على الجنرال ، وجلس بعد أن جمع ثيابه وتكور في عباته

كأنه صوان ضخم للثياب ، وبعد أن هدأت نفسه قليلاً اتجه إليه مينو سائلاً :

– ما قول مولانا المفتي في مسيحي أسلم ، أيجوز أن يتزوج بمسلمة ؟

– نعم يجوز شرعاً إذا ثبت إسلامه لدى مسجل العقود

بالطرق الشرعية .

– وما الطرق الشرعية ؟

– الإقرار والبينة . وأقوم السبل أن يقدم هذا الرجل إلى المسجل وثيقة شرعية بإسلامه .

– إننا في فرنسا لا نتشدد هذا التشدد ، فالناس أحرار في عقائدهم وتصرفاتهم .

– إن الإسلام أيها الجنرال يدعو إلى الحرية ، ولكنه يحيطها بسياج حتى لا يضر بعض الناس بعضاً بتصرفاتهم ، والله جل شأنه يقول في كتابه الكريم : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

– هذه حكمة يجب أن تكون أساساً لجميع القوانين . لقد أفدتنا كثيراً يا مولانا ، وقد دعوتك لأن جدلاً قام بيني وبين شوفور فيما سألتك عنه . يا إينال مرُ بعض الجنند أن يكون في خدمة الشيخ حتى يصل إلى داره .

مضى بعد ذلك يومان قضاهما مينو في التفكير وتقليب وجوه الرأي ، وذهب في أثنائهما الشيخ الحضري إلى الشيخ إبراهيم الحارم ليقضى السهرة بداره على عادته ، وجاء ذكر الفرنسيين وأعاجيب أفعالهم ، كما كان يجيء في كل ليلة ، فقال الشيخ الحضري :

– دعاني الجنرال ليلة أمس بعد أن ذهبت إلى فراشي ،

فلما كنت عنده سألتني سؤالاً عجيباً . فقال الشيخ الجارم :

— عن أى شيء سألتك ؟

— سألتني عن صحة زواج المسيحي الذي أعلن إسلامه بمسلمة .

فأحس الشيخ الجارم — وكان بعيد النظر نافذ

البصيرة — أن وراء هذا السؤال داهية دهماء ، توشك

أن تسقط على المدينة ، ودفعته غريزة الحذر أن يكتم عن

الشيخ اهتمامه فقال : إن هذا الرجل أخطأته عمامة الفلاسفة ،

وقد خرف القدر فسماه جنرالاً ، ولعل اهتمامه بسؤالك عن

الزواج وغيره خطرات من وساوسه التي لا يفوق منها .

وانقضت السهرة وودع الشيخ ضيفه ، وجلس واجماً

وقد حمل رأسه براحتيه ، وتواردت عليه الأفكار والهواجس ،

وأخذ يحدث نفسه : هذا المينو يريد أن يتزوج ، ما في ذلك

من شك ، ثم هو يريد أن يتزوج بمسلمة ، وهذا بديهي

أيضاً . وما شأنى أنا بهذا ؟ فليتزوج فلن أستطيع دفعه ؛

ولكنها مصيبة ستحل بأسرة في رشيد ، وبأبي الأسر تتزل ؟

بأكبر الأسر وأرفعهن شأناً ، لقد قرب الخطر مني ، وأخذت

النار تمتد إلى ثيابي . إن لي بنتين ، فياللكارثة ! كيف أدفع

هذا العار عني ، إن كلمة « لا » أصبحت في عرف

الفرنسيين لا تفيد النبي ، وإذا استطاع شجاع أن يقولها

فلن تكون نهايته إلا الذل والدمار . إن هذا الجنرال سيظن

أن زواجه بأكرم بنت في المدينة تنزّل منه وتواضع : وشرف
عظيم وتفضل واسع على من يصاهره . فالويل كل الويل
لمن يرد هذا الشرف المزعوم في وجهه ، أو تبدو منه أية
رغبة عن هذا الفضل العظيم ! أليس من مفر ؟ أليس من
حيلة ؟ ليتني زوجتهما منذ حين ، وليتني لم أزد عنهما
الخطاب كما يزود حارس البستان الطيور عن ثمره ! إنني
واثق أن إسلام الجنرال رياء ، ولو كان مسلماً حقاً ، وأخلاقه
أخلاقه التي أعرفها ، ما رضيته زوجاً لأية فتاة تتصل بي
من بعد أو من قرب . لا . لا . لا . لا إن هذا لن يكون .
ثم رفع رأسه وبدا في عينه بريق الظفر ، وهدأت نفسه
هدوء من يهتدى إلى حل أمر عسير ، فنادى بخادمه وقال :
- اذهب الآن مسرعاً وادع إلى الشيخ عثمان شبايك ،
والشيخ حسيناً أبا السعود ، أتعرفهما ؟ إنهما الطالبان اللذان
يجيئان هنا في عصر كل يوم لتلقّي الدروس . واذهب
بعد أن تدعوهم إلى بيت الشيخ محمد غرا ، واطلب منه
أن يعجل إلى .

وأقبل الطالبان بعد قليل فحياهما الشيخ وقال : إنما
دعوتكما في هذه الساعة لأعرض عليكما زواج بنتي ، فقد
أدركني الهرم ونخشيت إن أنا مت أن يزوجهما أخوهما
من غير العلماء . وقد تعجبان من هذا العرض المفاجئ ،

ولكن لو علمت ما أحاط بي من الوسوس والهموم لزال عجبكما . فنظر الطالبان إليه في ذهول . وقال أولهما : هذا شرف كبير يا مولانا يطير اللب ويثير العجب ، وإنما نحن خادما لك اللذان يتنافسان في حمل نعليك ، فإذا تفضلت علينا بهذه الكرامة ، فليس لنا إلا أن نشعر بأن ما أصبناه من خير إنما هو بركة من بركاتك ، ونفحة من نفحاتك . ثم انقضا على يديه لثما وتقبيلا وهنا دخل الشيخ محمد غرا ، فطلب منه الشيخ أن يدون عقدي زواج ، لأنه زوج الشيخ شبايك برقية بنته ، والشيخ أبا السعود بأمنة . فانزعج الشيخ غرا وشرع يتلعم ، ولكن الشيخ صوب إليه عينين غاضبتين ، فاستل قلمه وكتب .

وفي بكرة النهار أقبل أعوان مينو يتواثبون إلى دار الشيخ الجارم حتى ملئوا رحبها ، وهم يتعجلونه إلى مقابلة الجنرال ، فخلل الشيخ لحيته بأصابعه - وقد كانت تلك عادته إذا أحس بظفر أو كتم شماتة في عدو - ثم وجد نفسه وهو ينشد :

فأصبحت من ليلي الغداة كقابض

على الماء خائنه فزوج الأصابع !

وركب الشيخ بغلته وسار معهم وهو يردد في همس

خافت استغائته التي أغرم بترديدها :

نحن بالله عزنا والحبيب المقرب
 بهما عز نصرنا لا بجاه ومنصب
 والذي رام ذلنا من قريب وأجنبي
 سيفنا فيه قولنا حسبنا الله والنبي

حتى إذا كان بحضرة مينو فجأه الجنرال بمحاضرة طويلة الذبول عدد فيها أجداده الأبطال ، وما كان لهم من أثر مجيد في تاريخ فرنسا . وأطال في إطراء شرف محمده ونبل أعراقه ، والشيخ مطرق يخلل لحيته بأصابعه ، ولسانه لا يفتر عن قراءة القرآن . ثم انتقل مينو إلى غايته فقال : وقد أردت ألا أضن على هذا البلد بما يصلني بأهله ، فعزمت على إعلان إسلامي والإصهار إلى أسرة شريفة ، يتصل نسبها بالسلالة النبوية . وعلمت أن لك بنتين فلم أجد عليّ من عار إذا تزوجت بكبراهما . إن الناس سيدهشون حقاً لهذه المصاهرة ، ولكنهم لو علموا أن التواضع من أول صفات الجنرال مينو ما عجبوا . فرفع الشيخ رأسه وقال :

— هذا ياسيدي شرف عظيم . ولو كنت أعلم ذلك الحظ

السعيد الذي ينتظرنى ما زوجت ابنتي بالأمس .

— هذا شيء يؤسف له فقد كنت أرى أن تكون لى صهراً .

— ذلك تقدير العزيز العليم .

وهنا وقف مينو وفي وجهه دلائل الحقد والغضب ، فوقف

الشيخ وسلم وانصرف .

ولم يستقر مينو في مجلسه حتى أرسل في طلب السيد محمد البواب . والسيد على الحمامي : فلما دخلا عليه دهنهما بطلب الزواج بزبيدة ، فكاد البواب يصعق حول ما آتت عليه . وراعه الموقف وأصماه سهم القضاء . وأخذ الحمامي يسهب فيما سينالهم من الشرف والجاه بهذه المصاهرة ، فأفاق البواب وقد سمع نفسه وهو يقول في خوف وتلعثم : إني كنت أتمنى أن أتاك هذا الشرف لولا . . . ولكن الحمامي أسرع فقال في صوت مرتفع حجب كل صوت : إننا ياسيدي الجنرال طوع أمرك ، وإن نزلنا إلى مصاهرتنا واختصاصنا بهذه الكرامة دون غيرنا ، فضل دونه كل فضل ، وكرامة ليس بعدها كرامة . وهنا هز مينو رأسه في كبر وأنفه وقال : سيكون الزواج بعد أسبوع ، فقال الحمامي إنها الآن بالقاهرة ، وسأسرع غداً إليها ، وفي يوم حضورها يتم الزواج .

خرج الرجلان من دار مينو ، فقال السيد محمد البواب للحمامي في ذهول :

- لقد قتلتني يا رجل وجلبت عليّ عار الأبد .
- إن هذا الزواج سيرفع من شأنك ويجعلك سيد المدينة .
- إني لن أشتري سيادة الدنيا بهذه الوصمة .

— هون عليك يا عم ، فلن يضيرك أن تكون صهر أكبر جنرال فرنسي ، ولن تلبث حتى يتزاحم عليك وفود المهنتيين من كل مكان .

— لن أبقى في المدينة حتى أرى واحداً منهم !

— سألتك بالله أن تترىث يا عم ، فإن الوهم يلعب برأسك ، ويصور لك من حادث يتمناه الناس جميعاً فادحاً .
— لن أبقى برشيد لأرى الناس يراءونني ، ولو كشف عنهم الغطاء لبدت قلوبهم وكلها زراية بي واحتقار وسخرية .
ماذا تظني يا رجل ؟

إنني لن أعيش في مدينة كل ما فيها ومن فيها يذكرني بأن ابنتي في عصمة إفرنجي معتصب .
— ولكنك ستقتل أمي .

— إن الموت قد يكون أحياناً خيراً من الحياة .

— يا للمصيبة ! وماذا نعمل الآن ؟

— ماطل الرجل إن استطعت ومنه الأمانى ، ففعل الله يعقب بعد عسر يسراً .

— لن أستطيع يا عمي . إنني إن فعلت فتك بنا جميعاً وصادر أموالنا ، فإنه إذا تملكه الغضب انقلب أسداً هصوراً .
— الله أقوى منه . سأرحل الآن حيث لا يعلم أحد مكاني ، وقد أعددت العدة للسفر قبل أن أذهب لمقابلة الرجل ،

فإني أوجست منه شراً . ثم انفلت هائماً نحو غرب المدينة ،
فاكترى بغلا سار به في طريق الإسكندرية : منطلقاً في
عجلة كأنه الصيد المدعور .

وسار الحمامى إلى أمه حزيناً ، ولكنه ما زال بنفسه في
الطريق حتى مسح عنها الحزن ، وصور لها ما يستقبله من
الثروة والجاه ورفيع المنزلة فاطمأنت ، ثم طغى عليه سيل من الأمانى
والأحلام فسخر من عمه ، وهزى من تزمته وتحرجه ، واعتقد
أنه رجل لا يفهم الحياة ولا يهتبل الفرص . وما دام الزواج
شرعياً فأى شىء فيه من العار الذى يتخيله الأغبياء المتحذلقون؟!
دخل على أمه ضاحكا مرحاً ، وألقى إليها الخبر فى جذل
وابتهاج ، وأخذ يسهب فى وصف الجنرال وكرم أخلاقه
وشدة تمسكه بدينه ، وأن كرائم الأسر فى رشيد ستحسد
أخته على هذا الشرف الباذخ ، الذى طالما ترامت على
أعتابه فلم تظفر منه بطائل .

– وهل قبل أبوها ؟

– قبل مسروراً ، وسافر ليعد لزبيدة جهازاً يليق بالجنرال .

– أننى لا أعرف ما يعرفه الرجال ، ولكنى غير مسرورة

لهذا الزواج ، لأنه زواج غير عادى ، ولا أظن أنه ينتهى

بنحير .

– دعى الأمر لله .

— آمنت بالله لا رب سواه .

وأسرع الحمamy إلى القاهرة في غد يومه ، واحتال لأخذ زبيدة ، فادعى أن أمها مريضة . ثم مضت أيام وصلت بعدها إلى رشيد ، وكانت أمها مريضة حقاً ، لأن غيبة زوجها أقلقته بالها وأقضت مضجعها ، وجعلتها تظن الظنون فدخلت عليها زبيدة فقبلتها باكية ، وحين سألت عن أبيها أخبرتها بأنه سافر منذ حين ، وسيعود قريباً . وحينما فجأها أخوها بنجر خطبتها تلقته ذاهلة أول الأمر ، وطاف بها خيال محمود وما له في سويداء قلبها من حب مكين ، ثم طاف بها خيال العرافة رابحة ، وتنبهت فيها غرائر الطموح ، وقضت الليل كله تحمل ميزاناً من الوهم ، تضع مينو في إحدى كفتيه ومحموداً في الأخرى ، فمرة ترجح هذه ، ومرة ترجح تلك . وكانت تثب من سريرها وتقول : هذه هي الموقعة الفاصلة في حياتي ، فأى الرجلين أختار ؟ مينو ليس الآن ملك مصر ولكنه قد يكون ، ومحمود أحب الناس إلى قلبي وأقربهم إلى نفسي . مينو إفرنجي يقولون : إنه أسلم ، ولكني لا أعرف أخلاقه وصفاته ، وهو ليس من جنسى ولا من قبيلي ، ومحمود ترب صباى وشقيق روحي ، وفيه صفات الأبطال وخلائق سكان السماء ، ولكن ليس لديه ملك ، وليس لديه عرش ، وليس لديه صوبلجان . مسكين

يا محمود ، لو كنت ملكا ! ولكن مالى وللملك أسلك إليه
 طريقاً مظلمة موحشة مجهولة . لا . لن أتزوج بهذا الفرنسي
 ولو انطبقت السماء على الأرض . ولكن من يدري فقد يكون
 هذا الرجل مطيبي إلى ما أريد ؟ إن العرافة لم تكذب قط ،
 فإيمـ تكذب في أمرى وحدى ؟

وهكذا ظلت زبيدة تخلط وتهذى حتى بزغ النهار ،
 وحينما مالت الشمس الأفق غصت دار البواب بالزوار .
 وكان بينهم الحاج حسين الميقاتي ، والسيد على الحمamy ،
 والسيد أحمد النقرزان ، والسيد إبراهيم النقرزان ، فطلبوا
 من زبيدة توكيل الحاج حسين في تزويجها بمينو ، فوكلته
 أمام الشهود في تردد ووجل . وكان مينو أشهد على إسلامه
 قبل ذلك أمام القاضي الشرعى ، وسمى نفسه عبد الله جاك
 مينو ، واختار أن يكون الحاج أحمد شهاب وكيله في الزواج
 فاجتمع الوكيلان والشهود والمفتون بالمحكمة في اليوم الخامس
 والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف
 وعقد لعبد الله مينو على زبيدة ، وزفت المسكينة الطموح
 إلى مينو بعد أسبوع ، فقدفت بسفينة حياتها في خضم قائم
 مضطرب الأمواج ، لا يهديها فيه إلا شعاع من أمل متقطع
 كاذب ، ولو نفذ إلى سمعها صوت من بين هذه الأمواج الصاخبة
 حولها ، لسمعت قهقهة القدر وهى تجلجل في شماته وسخرية .

بني محمود العسان ونيكلسون بالقاهرة يرتقبان الحوادث ويتصلان بجماعات الثوار ، ويبتكران الوسائل للانتفاض على الفرنسيين وزعزعة حكمهم في مصر ، وذهب محمود ذات صباح إلى متجره بخان الخليلي الذي يشرف عليه ابن عمه ، وبعد أن جلس قليلاً رأى آثار الحزن والتوجوم بادية في وجه ابن عمه ، فحاول أن يتغافل عما بدا له لأن عبوس الوجوه وانقباضها ليس بالشيء الغريب في هذا الزمن الغريب ، ولكن حسيناً زاد ارتباكاً وانصرافه إلى الأمور التافهة وتجنبه النظر في وجه محمود ، فابتدره قائلاً : هل من جديد يا حسين ؟

- فتلعثم الفتى وحاول أن يتسم فلم يستطع ، ثم نظر في وجه محمود نظرة حزن وإشفاق وقال :

- إن سعداً الشباسي المراكبي جاء اليوم من رشيد .

- وماذا في هذا ؟ أماتت أمي ؟

- لا قدر الله . إنه يقول إن سيدتي زينب بخير .

- هذا شيء يسر ، فلم أراك عابساً حزيناً ؟

- إن ما قص علي من أعمال الفرنسيين برشيد آثار أحزاني .

- هذا شيء لا يقابل بالحزن ، وإنما يقابل بالجهاد

وجمع الكلمة وتوحيد الرأى .

— أخشى ألا نستطيع جمع الكلمة إلا بعد فوات الأوان .

وبعد أن تءاس كل كرامة ، وإن الحسرة لتمزق فؤادى حينما أرى بعض الناس الذين تأبى الإنسانية أن ينسبوا إليها يساعدون الفرنسيين ويتملقونهم ويذللون لهم السبل .

— إنهم ليسوا بأكثر ملقاً واستخذاء من العلماء أعضاء

مجلس الديوان الذين يحملهم الفرنسيون كل يوم على كتابة منشور مملوء بالآيات القرآنية لتأييد حكم الغاصب ودعوة الناس إلى طاعته . آه يا حسين ، إن مصر كانت مريضة بأهلها ، فلما جاء الفاتح لم يجد بها مناعة تصد الداء الوبيل الذى رماها به ، وماذا برشيد من أفانين مينو ؟

— علمت أن نزعته الجديدة أن يزوج بنفسه فى الأسر الكريمة .

— كيف ؟ يكثر من زياراتها ؟

— يكثر من زياراتها أو يصهر فيها .

— باللكارثة ! يتزوج بمسلمة شريفة ؟ إن دون هذا

وتسيل الدماء ! من يقبل أن يزوجه ابنته ؟

— ليست المسألة مسألة قبول . إنما هى إلزام وقهر ، ومن

يستطيع أن يقف فى وجهه ؟

— أتزوج فعلا ؟

— نعم .

— بمن ؟

فتهد حسين وغلبه دمعه وقال : بزبيدة .
فوجم محمود وذهل ، وألقى برأسه بين راحتيه ، وترك
عينيه شاخصتين كأنهما عينا المحتضر وقد جمد الدمع فيهما ،
وتملكه حزن وغضب حبسا لسانه عن الكلام والأنين . بقي
أكثر من نصف ساعة على هذه الحال ، ثم هب واقفاً وقال :
— ما أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم
إلا في كتاب . ثم قال : كنت أحارب الفرنسيين للوطن ،
واليوم أحاربهم للوطن والشرف والانتقام . ثم انطلق مطرق
الرأس كمن به جنة ، ولزم داره أياماً ليبت حزنه لنفسه ،
ويرسل الدمع مدراراً دون أن يخاف رقيباً أو مليماً .
غاب محمود فلم يزر نيكلسون أياماً ، فقلقت لورا ولعبت
بظنونها الأوهام ، فقالت في هيئة من عرض له أمر غير
خطير غير أنه يريد أن يتحدث ، بينما كانت تملأ فنجانة
القهوة لأبيها :

— هل سافر محمود إلى رشيد ؟

— ما أظن يا بنتي ، فإنه لو عزم على السفر لأخبرني .
إنني لم أره منذ أربعة أيام وقد شغلني عنه انصرافي إلى استهواء
ذلك الضابط الفرنسي حتى أصبحت جميع أخبار القيادة
العليا ملك يميني وفي متناول كفي .

— عجيب أن يروح ضابط بهذه الأسرار . كيف

استملته يا أبى ؟

— الجنود يا لورا ساخطون على البقاء فى هذه الديار ،

وبخاصة بعد أن هددتهم الثورات وحوادث الاغتيال .

وهم يعتقدون أن قدومهم إلى مصر لم يكن إلا لإشباع نزوة

لنابليون المولع بأن يجلب اسمہ دائماً بين الطبول والزمور ،

ولو أورد جنوده موارد التلف . ثم إنه ضلهم ودفعهم إلى

الاعتقاد بأنهم سيجدون فى مصر باريس أخرى ، فلم يجدوا

من ذلك شيئاً . عرفت هذا الضابط أول ما عرفته بحانة للإفرنج

بجارة الرويعى ، فرأيت فيه فتى وسم الطلعة ، يدل حديثه

وملاحظه على أنه من الطبقة المتوسطة بفرنسا ، وعلمت من

خادم الحانة أنه مرافق (ياور) الجنرال دوجا الذى قام

مقام نابليون بعد سفره إلى سورية . رأيت جالساً وقد خيم

على وجهه الحزن والسأم ، فبدأت الحديث عن الجو ، فابتسم

نحوى فى وداعة وتأفف وقال :

— إن جو مصر خداع كنسائها ، فإنه يصفو لك

يوماً ليذيقك عذاب الجحيم أياماً وشهوراً . آه يا شيخ !

لو ذقت حرارة الجو حينما قدمنا مصر واخترقنا هذه الصحراء

الملعونة بين الإسكندرية ودمهور . عند ذلك قربت من

خوانه ، ومددت يدي إلى كرسى فجلست بجانبه ، ودعوت

الخدام أن يأتي بكويين من الجمعة . وطال بيننا الحديث في جمال باريس وجمال نساها ، وقبح القاهرة وقذارتها وانتشار الأمراض بها : وجذبها من مسارح اللهو والتسلية : وبغض سكانها للفرنسيين . وقد أعلمته في غضون الحديث أنى مغربي وأنى مولع بالفرنسيين ، أحب فيهم الشهامة والشرف وخفة الروح ، وأعتقد أن ثورتهم التي قاموا بها في بلادهم للحرية والإخاء ستخلد أمتهم على الدهر ، وستبقى مثلاً عالياً في العالمين . فقبض على يدي وهزها في جذل ونشوة : واقتنصت الفرصة وأخرجت خاتمي الثمين من إصبعي ، وقلت : هذا يا سيدي . . فعاجلني وقال : ألبير . ألبير . فقلت : هذا يا سيدي ألبير سيكون رابطة الصداقة والمحبة بينك وبين صديقك السوسي . فالتقطه ألبير مبتهجاً وأخذ ينظر إليه دهشاً وقال : هذا لي ؟ قلت : نعم يا صديقي ، ولي من الثروة مالا يعدُّ هذا بجانبه شيئاً . ثم قمت بعد أن واعدني على أن نلتقي عصر كل يوم بالحانة .

– وهل أخبرك بشيء يا أباي ؟

– أخبرني أنه بعد أن سافر نابليون إلى سورية ظهر التمرد والانتفاض في أكثر بلاد مصر السفلى ، لكثرة ما دهى الناس من عبث الجنود ومصادرتهم لماشيئهم وحاصلاتهم ، فشبت الثورة بالشرقية ثم سرت نيران العصيان متأججة

مخيفة إلى ميت غمر ، والبلاد التي حولها ، ثم اشتد الهياج في منطقة رشيد وظهر بالبحيرة رجل ادعى المهديّة ودعا الناس إلى الجهاد ، وانضم إليه رجال القبائل وغيرهم ، وقد هزم الفرنسيين مرات حتى تكاثروا عليه آخر الأمر فقتلوه . وكان الفرنسيون إذا تغلبوا على مدينة فتكوا بمن فيها ودمروها . — هذا منطوق مقلوب يا أبى . إن قلوب الأمم لا تملك بالقسر والقسوة .

— إن هؤلاء القوم يظنون يا فتاتى أن السيف هو قانون أمم الشرق ، ولم يعلموا أن هذه الأمم هي التي علمت أوربا في القرون الوسطى قوانين سياسة الأمم ، وأرسلت إليها شعاعاً وهاجاً من المدنية والعلم . وبينما هما يتجاذبان الحديث إذا طرق خفيف على الباب ، فقام نيكلسون يفتحه فرأى محموداً العسال فلم يملك إلا أن يعانقه مرحباً ، ثم صاح : لورا ! ها هو ذا محمود العسال الذي أقلق بالنا بغيابه طول هذه المدة ، فأسرعت لورا فرحة بلقاء محمود ، ومدت إليه يديها في حب أخوى صادق ، وقالت :

— لا يا محمود . . . إن مثلثنا المماسك إذا غابت منه ضلع عاد منكسراً ؛ ثم قالت في مرح لطيف : وإهمالك زيارتنا ذنب لا يغتفر ، فلا بد أن تؤدي لنا حساباً دقيقاً عما كنت تفعل في هذه الأيام . حياها محمود تحية ملؤها

الشكر : وجلس واجماً ينكت الأرض بعصاه : وهنا قال نيكلسون : ما لي أراك اليوم منقبض الأسارير يا محمود ؟

— لخبير هائل وصل إلى من رشيد منذ أيام . ثم طفرت دمعتان من عينيه لم يستطع لهما حبساً ، وأخذ يصل الحديث ثم تتمم في ذهول : علمت أن الجنرال مينو تزوج بزبيدة . سمعت لورا الخبر فدارت بها الغرفة كأنها ركبت فوق محور ، وماجت بنفسها إحساسات عنيفة مبهمة . فأحست بشيء من الفرح يمتزج بالحزن الأليم . تزوجت زبيدة حبيبة محمود فأصبح خالصاً لها . لا يزاحمها في حبه شريك . والأثرة أول صفات الحب ، لأنه دائماً غيور حذر مستأثر . وإذا يتس محمود من زبيدة تفتحت أمامه السبيل إلى حب آخر ، وقد رأت منه في الأشهر القليلة الماضية ميلاً كاد يكون حباً . وحناناً جاوز حد الحنان . تمر هذه الصور سريعة خاطفة بذهن لورا فتسر وتبهج . ولكن صوراً أخرى في سرعتها ومضائها تدهمها قوية جياشة فتبتئس وتحزن . إن محموداً في ألم شديد فكيف تسر وحبيبتها يتألم ؟ إن بطلها قد خاب أمله ، وعبثت بعواطفه فتاة كانت تغذى حبه بوعود خلافة كاذبة . وإلا فلماذا لم تتزوجه ، وهو زينة الفتيان وفخر أبناء الزمان ؟ ولكن من يدري ؟ فقد تكون زبيدة المسكينة قد رُميت بهذه الداهية

على الرغم منها . وقد يكون أهلها قد غلبوا على أمرهم فزوجوها بهذا الفرنسي مكرهين . وهنا يجب أن تحزن لزبيدة أيضاً . فهي صديقتها وأختها . وقد كانت تحب محموداً حباً جماً . فيالنبكة العاشقين : وياللمصيبة الحبيين ! لا لا . إنها لا تفرح لمصائب الآخرين ، فكيف بنكبات أصدقائها المخلصين ؟ هكذا كانت الأفكار تتزاحم على لورا . وهكذا كانت عواصف الوجدان تطوح بها من ناحية إلى أخرى . لذلك اتجهت إلى محمود وقالت : إنها لكارثة حقاً ، مسكين يا محمود ! ولكن الرجال لا يكون ، ومثلك من يحمل الأرزاء فخوراً باحتمالها . وقال نيكلسون وقد برّح به الهم : عجيب أن يصهر الفرنسيون من المصريين ، ونحناجرهم في جنوبهم . ولكنني أعتقد أن زبيدة أرغمت على هذا الزواج إرغاماً ، هون عليك يا بنى فإن هذه المصيبة سيمحوها ما هو أشد منها ما دمننا في هذا الزمن الأغبر . ارفع رأسك يا بنى وكن رجلاً . فقال محمود : نعم سأكون رجلاً ، وسأعمل بوصاتك ووصاة لورا ، وسأثور على الفرنسيين لوطنى وشرفى . هلم يا نيكلسون فقد علمت أن نابليون سيعود اليوم من الشام وقد أقاموا له الزينات وأعدوا الطبول والزمور ، واعتقادی أنه هزم شر هزيمة على الرغم من منشورات الديوان ، ومن تلك الرايات التى رفعوها على مآذن الأزهر ،

ومن كل ما يذيعه أبواق الفرنسيين . هنم معنا يا لورا فإن
النظر إليك ينسنا ما نحن فيه من هموم . فارتدت لورا
حبرتها وغطت وجهها بنقابها . واتجه ثلاثهم إلى باب النصر
ينتظرون قدوم الفاتح العظيم ، حتى إذا وقفوا هناك مع
الجماهير المتزاحمة مر عليهم جماعات من عطاء المدينة
يركبون البغال المطهمة ، فسألت لورا محموداً عنهم فقال :
— أما هذا يا لورا فهو الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس
الديوان الحصوصى وشيخ العلماء ، وهو رجل أذله حب
المال والجاه ، فتعلق بأذيال الفرنسيين لا يهمه أخربت
البلاد أم عمرت ، وهذا هو الشيخ محمد المهدي وهو داهية
واسع الحيلة ، يقتنص العصفور من بين برائن النسور ،
يتملق الفرنسيين ليجتلب رضاهم ، ويصانع المصريين
بالدفاع عنهم ، والسعى فى تخفيف ويلاتهم . أما هذا
الشيخ الأسمر النحيل الجسد فهو رجل عظيم يا لورا ، إنه
الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الكبير ، علمت أنه يدون
الحوادث كل ليلة قبل أن يذهب إلى فراشه ، وله حكم دقيق
عادل على الوقائع والأشخاص . وهذا الشيخ الضئيل هو
الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف . أما الشيخ الوقور
الراكب إلى يمينه فهو السيد محمد السادات وهو رجل خطير
الشان ، يبغض الفرنسيين ويبغضونه ، وقد يرجى أن تكون

له يد في إنقاذ مصر ، وهذا الذي تربيته منحنيًا على قربوس
 بغلته ، وقد وشيت جيبته بالذهب ، هو المعلم جرجس
 الجوهري القبطي ، كبير المباشرين والكتبة ، وله في هذه
 الدولة نفوذ عظيم . وانظري يا لورا إلى هذا العتل الزنيم
 الراكب وراءه ، إنه برثلمي الرومي ، وهو نكبة مصر
 في لأوائها . كان من أسافل جند المماليك فعينه الفرنسيون
 وكيلا لحاكم القاهرة فطغى أشد الطغيان ، وأصبح صورة
 بشعة للقسوة والنهب وسفك الدماء والتجسس على الناس .
 ودخل نابليون في عظمته وجلاله من باب النصر يتبعه
 الجيش . فاخرق شوارع الجمالية وبين القصرين والموسكى ،
 حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع ودق
 الطبول .

ولما انفرد محمود بنيكلسون ولورا قال : أشهد أن نابليون
 هزم في هذه الموقعة وعاد مدحوراً ، أرايتما كيف كانت
 عيناه تنطبقان أحياناً لكيلا تؤله رؤية هذا الاحتفال الكاذب ؟
 أرايتما جيشه خلفه وهو يكاد يسقط من الإعياء ؟ إني أقسم
 أنه فقد نصف عدده . أرايتما هذا النفر الضئيل الذي يسميه
 أسرى ؟ هؤلاء يا لورا من باعة الصابون الفلسطينيين الذين
 يتجرون في مصر ، وفي ظني أنه ظفر بهم وهم قادمون فزين
 له عجبه أن يتخذهم أسرى . فقالت لورا : أعتقد أن المبالغة في

الاحتفاء به وحدها هي أوضح دليل على خذلانه. وقال نيكلسون :
 صدقت أيها الفيلسوفة الصغيرة ، لكني أقول إن عودته
 وحدها من سورية برهان نكبته ، لأن نابليون كان يرجو
 بعد فتح عكا أن يزحف إلى دمشق وحلب ، وأن يصل منهما
 إلى الأناضول فيحتل إستانبول ويقوض أركان الدولة العثمانية ،
 ثم يمضي بجيوشه نحو النمسا ويصل منها إلى باريس ظافراً
 منصوراً بعد أن امتلك الشرق والغرب ، فعودته بعد أن طاحت
 هذه الآمال خيبة ليس وراءها خيبة . على أننا سنتسمع
 الخبر اليقين من ألبير غداً ، فقال محمود : ومن ألبير هذا ؟
 - ضابط فرنسي ساخط على بقاء الفرنسيين بمصر .
 وكانوا بلغوا منزل نيكلسون فودعهم محمود وانصرف .
 قضى نيكلسون اليوم التالي في رسم خريطة للقاهرة
 تبين شوارعها ودروبها وأشهر معالمها ، حتى إذا جاء وقت
 العصر غادر داره متجهاً نحو دكان محمود ، فراه جالساً
 قلقاً ينتظره . فسارا معاً حتى بلغا الحانة ورأى نيكلسون ألبير
 جالساً في إحدى زواياها ، وهو يذود الذباب عن وجهه
 ضجراً مغتاضاً ، فلما رآه ألبير صاح مبتهجاً : أدركني
 يا صاحبي المغربي ! فإنه يظهر لي أن ذباب مصر ملتهب
 الوطنية ، وأنه حينما رأى أن المصريين لم يستطيعوا إخراجنا
 من مصر ، أراد أن يقوم بالأمر عنهم ، فابتسم نيكلسون وقال :

– إن الذباب يسقط على ما يحب لا على ما يكره .
 – إنه حب من النوع القاتل ، فقد نكب هذا الحب جنودنا بالرمد المصرى والزحار وأنواع لا تكاد تحصي من الحميات القاتلة .

– الشاعر العربى يقول : ولا بد دون الشهيد من إبر النحل !
 والشهد هنا هو النيل ، فمن أراد أن يمتلكه ويتمتع بعذب مائه فليصبر على ما بشاطئيه من حشرات وأمراض . ثم التفت إلى محمود وقال : هذا ابن أخى ، فنظر إليه ألبير مبتسماً وقال : ولكنه يتزيا بزى المصريين .

– لأنه يريد مجاملتهم لتروج تجارته بينهم ، أوصلت إليك السجادات العجمية ؟

– أنت لم تمهلى لشكرى ، وهذا الذباب قد علمنى سوء الأدب فلم أسارع منذ رأيتك إلى إظهار ما يملأ نفسى إعجاباً بك وبهديتك الغالية . حقاً إنها سجادات يزدهى بمثلها قصر الشاه بإيران .

– هذا شىء قليل يا صديقى . أشهدت الاحتفال بمقدم نابليون بالأمس ؟ لقد كان غاية فى العظمة وجلالة الملك .
 – نعم لقد كان احتفالا فخماً ، ولم ندخر وسعاً فى أن يكون صورة لقوة فرنسا ووضخامة سلطانها .
 – ولكنى كنت أحب أن يصل نابليون إلى أبعد من عكا .

— فابتسم ألبير ابتسامة فاترة حزينة وقال : هذا ما كان يتمناه نابليون ويتمناه كل فرنسى معتقل فى أرض مصر ، فإنه بعد أن سد علينا طريق البحر بتدمير أسطولنا حاول قائدنا أن يسخر من العقبات وأن يشق لنا طريقاً برية تصلنا بفرنسا ، فوقف القدر فى وجهه فلم يجد إلا أن يعود أدراجه إلى مصر .

— إنها محاولة جريئة ، لن يقوم بها إلا نابليون العبقرى .
 — ولكن الثمن كان غالياً جداً ، والنكبة فادحة جداً .
 ولحق نيكلسون غلام الحانة فأمره بإحضار كأس من الخمر ، وفنجانتين من القهوة ثم قال : إنهم يقولون إن نابليون عاد منتصراً ، ولكن ألبير مط شفته السفلى فى غيظ وأسف ، وقال : إن للسياسة يا صديقى لغة لا يفهمها الناس . وحضر الغلام فاحتسى ألبير كأسه دفعة واحدة ، وأمر له نيكلسون بأخرى . وهنا مال ألبير نحوه برأسه وقال هامساً : لقد أصبحت لى يا سوسنى أخاً وحبیباً ، ولقد رأيت فىك ميلا للفرنسيين وحباً خالصاً لهم ، وليس من حرج أن أكشف لك خبيثة كل أمر . لقد اطلعت بالأمس على رسالة طويلة كان بعث بها الجنرال « رينييه » إلى دوجا منذ أسبوع يصف فيها هذه الحملة ووصفاً دقيقاً فيقول : إنهم تغلبوا على الجيش العثمانى فى العريش واستولوا على يافا بعد حصار

شديد ومعركة عنيفة ، وإن الجنود ارتكبوا في يافا من القتل والنهب ما تقشعر له الأبدان ، وفي هذه المدينة انتشر بين الجنود وباء ماحق كاد يقضى عليهم جميعاً ، وفيها أمر نابليون بإعدام ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية دفعة واحدة بعد أن ألقوا السلاح ، وبعد أن تعهد فم بعض ضباطه بسلامة أرواحهم إذا سلموا . ثم استأنف الجيش سيره فاحتل حيفا ، ثم اتجه نحو عكا وهي مدينة محصنة بها جيش قوى من العثمانيين يقوده أحمد باشا الجزائر ، وهو قائد شديد المراس قاس ، خبير بشئون الحرب ؛ واشتعلت المعارك بينه وبين الجزائر طاحنة شديدة الأوار . ولما طال الحصار وضعف جند نابليون وعظمت خسائره ، ارتد عنها بالبقية الباقية من جيشه ، وزاد في قوة عكا أن الأسطول الإنجليزي بقيادة سدنى اسمث كان يظاهر جيش الجزائر ويحول دون وصول السفن الفرنسية بالذخائر إلى الشاطئ ، وقد أسر منها سبعاً كانت قادمة من مصر تحمل مدافع الحصار وكثيراً من الذخيرة ، فضمها إلى أسطولها . وهكذا عاد نابليون إلى مصر حزيناً يائساً بعد أن فقد خيرة رجاله

— لقد أحزنتني يا ألبير ، إنها حقاً لكارثة جائحة تشبه كارثة الأسطول الذي دمره نلسون ، ولكن نابليون رجل خلاق للفرص يتخذ دائماً من خذلانه ذريعة لفوزه وانتصاره

— إنه يحارب في غير ميدانه يا صديقي ، ويحاول اغتصاب بيت بعيد عنه ، وهو غافل عن بيته الذي كادت تلتهمه النيران ، ويضيع جهوده في صحراء قاحلة بينما يترك جنات أوروبا يتواثب عليها الأعداء !

وطال المجلس فوقف نيكلسون ومحمود وودعا صاحبهما وانصرفا . وأجل نيكلسون محمود ما حدثه به البير فاغتنبط وقال : هذه ضربة قاصمة ستليها بحول الله ضربات . فقال نيكلسون : أغلب ظني أن نابليون لن يستطيع البقاء في مصر طويلا بعد هذه النازلة ، وعلى المصريين أن يهتبلوا الفرصة ويشبوا على الأسد وهو يلحق جراحه .

مضت أيام والمصريون في ثورة نفسية عنيفة يكتمها الحذر بعد أن شاعت الأخبار بينهم بهزيمة نابليون بسورية وارتداده عن حصون عكا ، ثم ملأت الإشاعات جو القاهرة بنزول الجنود العثمانيين بأبي قير . وأحس نابليون بالخرج وأدرك ما في الموقف من خطر ، وبخاصة بعد أن علم أن أسطول سدني اسمث يرافق العمارة العثمانية . فأرسل أوامره إلى قواده ووثب بجيشه على العثمانيين واشتد الصراع وطال أمده ، حتى انتهى بهزيمة الأتراك والاستيلاء على مدافعهم وذخائرهم . ما كاد محمود يتنفس الصعداء ويستبشر بقدم العثمانيين حتى دهمه الخبر بهزيمتهم فلزم داره أياماً ، وحين برّحت

به آلام الوحدة ذهب إلى نيكلسون بداره يشكو إليه بثه
 وحزنه . ولكن نيكلسون لاقاه ضاحكاً مستبشراً وقال :
 قربت النهاية يا بنى فلا تبتئس . ثم أخرج من صندوق
 أمامه جريدة إنجليزية وقال : بودى لو كنت تستطيع
 قراءة هذه الجريدة يا محمود . قابلت بالأمس ألبير وبعد
 أن تحدثنا طويلاً ، ودممت بالانصراف أدخل يده في
 جيب معطفه وأعطاني هذه الجريدة وقال : اقرأ هذه يا صديقي
 تعلم أن كل ما تخيلته منذ أيام كان صحيحاً . فسألته من
 أين له بهذه الجريدة فقال :

— إن سدنى قائد الأسطول الإنجليزي — وهو من
 نوابغ الإنجليز وكبار عباقرتهم — اغتم فرصة ذهاب
 ضابطين بعث بهما إليه نابليون للتحديث في تبادل الأسرى ،
 فأحسن لقاءهما وزودهما ببعض الصحف الإنجليزية .
 وما كان يريد سدنى اسمت بهذه الهدية الغالية إلا أن يطلع
 نابليون على ما أصاب أوروبا من الاضطراب وما دهيت
 به جيوش الفرنسيين في إيطاليا من الهزائم . وأكبر ظني أن
 نابليون لن يقيم طويلاً في مصر بعد أن وصلت إليه أنباء
 هذه الكوارث . ثم أخذ يقرأ على فقرات مما جاء بالجريدة
 فكان منها أن الفتن اشتدت بألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأن
 السخط وبوادى الثورة على حكومة فرنسا عام شامل ، وأن

إنجندرا لا تفتأ تشن غاراتها على أملاك فرنسا بانبجار ، وأنها
اجتذبت إليها روسيا وتركيا فصارحتا فرنسا بالعدوان . وهنا
قال محمود : إن خروج نابليون من مصر فرار من الميدان ،
واعتراف صريح بأن السيف والنار لا يستطيعان أن يملكا
القبوب أو ينهبا من عزيمة أمة عزلاء أمضت إرادتها أن
تعيش عزيزة لا تلين قناتها لغاصب .
هذه الأخبار يجب أن يطاع عليها الشيخ السادات ،
فهام بنا إليه .

لقيت زبيدة من زوجها مينو أول الأمر شغفاً وهياماً
وطرقاً في الغزل وشكوى الصباية لا عهد لها بها ، فكان
يجثو أمامها في ذلة واستعطاف كما يجثو الراهب في
عرابه ، ويتمم في أذنها بأحاديث من الحب والوله تختلط
بإشارات وحركات ينتفض لها قلب كل فتاة . وقد أتقن
مينو هذا الفن بعد أن تدرّب عليه طويلاً في مجتمعات
باريس . وكان كثير من شبان أوروبا في هذا الحين يعدون
إغراء المحصنات بأساليب الختل والكذب فناً رفيعاً وثقافة
عالية . فالذى لا يغازل أبه . والذي لا يستنزل فضيلة

المرأة البتول من قمة قدسها إلى أسفل درك لا يعد رجلاً
 كامل الذوق واسع العلم بالحياة . وإذا تنافس فرسان العصور
 الوسطى في الشجاعة وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف ،
 فإن فرسان أوروبا في هذا العصر كانوا يتنافسون في نصب
 الحبال للغميد الفاتنات . ولقد سرى الداء إلى النساء فلم
 يعد الطهر طهراً ، ولا العفاف عفافاً ، حتى إن المرأة كانت
 تباهى بكثرة عشاقها .

وأجاد الشبان دروس الغزل ، وأعدوا لكل نوع من النساء
 نوعاً خاصاً منه ، كأنهم باعة ثياب يبيعون لكل مستام
 ثوباً على قده . وقد قطعوا الصلة بين اللسان والقلب ، وبين
 الوجه والضمير ، فهم يتحدثون عن الحب وليس في قلبهم
 منه إلا فتكات اللص وشهوات البهيم ، ويكون في ضراعة
 ووجد وضميرهم يسخر ويقهقه من غرور المرأة وقرب
 وقوعها في الشرك .

ولكن مينو كان زوجاً ، عقد له على زبيدة بكتاب الله
 وسنة رسوله . فلماذا يعصف به الحب ويدلّبه الغرام ،
 ومحبوبته بين ذراعيه ، وهي له وحده لا يزاحمه في حبها مزاحم ؟
 لأن النشوة الأولى بهرت الرجل ولعب بلبه ما رأى في زوجته
 من سحر وفتنة ، أم لأن الرجولة فيه كانت عاتية طاغية
 فلم يملك إلا أن يجد لما يجيش في نفسه متنفساً بالغزل وبث

الغرام؟ أم لأن العادة جرفته فأخذ يكرر في بيت الحاكم برشيد تلك الدروس التي حفظها وأجاد إلقاءها في حفلات فرنسا؟ وكانت زبيدة بعد زفافها في بحر مائج مضطرب من الأفكار والهواجس . أترضى بما قسمه لها القدر ، وتقنع بهذا الزواج الذي سيجلسها على عرش مصر ، فتجزي زوجها حباً بحب؟ أم تسخط على صلة دفعها إليها أمل كاذب مغرر فتتكش بقدر ما يحسن بها الانكماش ، ولا تعطى هذا الفرنسي إلا ما تسمح به الفتاة الملول؟ لم يكن في الجنرال مينو شيء يغرى المرأة بالرجل قط : وجه غليظ دميم القسمات ثقيل الملمح ، وجسم بدين إلى القماءة أقرب ، وكرش بارزة كأنها الزق المنتفخ ، ثم هو وقد خطا نحو الخمسين لم يبق فيه مأرب للنساء ولو كان في جمال يوسف الصديق . فكرت زبيدة طويلاً وقدرت طويلاً ، فجال بخاطرها محمود وما أنعم الله به عليه من كمال في الخلق والخلق ، وجمال في النفس والجسم ، ورجولة ناضجة تهوى إليها قلوب النساء ، وعقل راجح يلعب بألباب الرجال . جال ذلك بخاطرها فثار حبها القديم ، وهاجت عواطفها الكامنة ، وتأججت بفؤادها نار من الوجد طالما أخذتها بماء دموعها ، لأنها لن تصل بمحمود إلى ما تريد من ملك مصر ، ولأن حبه لا يحقق لها تلك الأحلام الذهبية التي

منها بها رابحة العرافة وأين محمود وأين جهارته ، من ملك
سامق البنيان عزيز السلطان تعنو إليه الوجوه وتنحى الرعوس ؟
هكذا مضت أيام زبيدة ، وهي تفكر وتثير غبار الماضي .
لا يمر بخاطرها ذكر محمود حتى تثور عليه حزينة متألمة ،
فإذا نسيته أو شغلها عنه شاغل حنت إليه وتشبثت بخياله
تبته وجداً متأججاً وحباً كيناً . ولكنها أبت في النهاية أن
تمنح قلبها رجلا جر العار إليها وإلى أهلها . فقد فر أبوها
من المدينة يوم خطبتها ، وبمع الحزن نفس أمها أسفاً ،
وجانبها عشيرتها فأصبحت أشبه بأسيرة في جيش الأعداء ،
وإن أحاطت بها صنوف النعيم . وفي ذات صباح أطلت
من نافذة قصرها فرأت الجنود والحراس وقد التفوا حول
امرأة في ملاءة بالية ، وهي تصيح في وجوههم وتقذفهم
بأبلغ ما تضمنته معجمات العامة من شتائم ، فأطالت زبيدة
النظر فإذا هي رابحة العرافة ، فأرسلت في عجل إحدى
وصائفها لتأمر الجند بإدخالها . دخلت رابحة على زبيدة
مربدة الوجه ، وبعد أن تهتت طويلاً ، قالت :

— أسعد الله صباح الملكة .

— الملكة ؟ هكذا مرة واحدة يا رابحة ؟ إن الفرنسيين

لم يدعوا في مصر ملكاً ولا ملكة ولا أميراً ولا أميرة .

— نعم ، ولكن كل هذا لن يحول دون أن تكوني ملكة ،

إن علمي لن يكذب أبداً ؛ انهم إلا إذا محبت خطوط
كفك النبي .

– ولكن أين أنا الآن من هذا الملك الموهوم ؛ وهل زواجي
بهذا الفرنسي يقربني خطوة إليه .

– لا أدري ؛ لأنني أعرف الغايات ولا أعرف الوسائل ؛
وكثيراً ما دهشت لأعاجيب القدر ؛ وكثيراً ما كتمت
ما أراه من لمحاته حتى لا يسخر الناس مني .

ثم غيرت مجرى الحديث وقالت : لقد زرت أمك منذ أيام
فساءني ما رأيت من ذبولها وشدة حزنها لاختفاء أبيك .
أما أعجب العجب فابتهاج أخيك على الحماسي وازدهاؤه
بصهره الحديد ؛ لقد نسي المسكين كل معنى للرجولة بعد
أن أغدق الجنرال عليه وجعله رئيس التجار وموضع الشفاعات ،
وأجرى عليه النعم . فهو اليوم يركب جواده في كبر وتيه ،
وأمامه ثلة من الجنود الفرنسية توسع له الطريق . ولن تذهب
سفينة إلى القاهرة أو الإسكندرية إلا بإذن منه ، ولن
يصدر هذا الإذن إلا بما يكاد يصل إلى قيمة ما تحمله
السفينة . وبينما هي في الحديث إذا صوت جهير تتردد صيحاته
في الأفق تبينتا فيه صوت الشيخ على سريط وهو يقول :
– « طأطأوا الرعوس ، للرعوس ، وإن ذهب الإسلام ،
وعبث الذئب بالأغنام » .

فتجهمت زبيدة ووجهت رابحة ثم قامت وهي تقول :
سأطأطأ الرأس للملكة . أما الإسلام فله رب يحميه .
وانفلتت كأنها الطائر المروع . وبعد خروجها دخل المترجم
إلياس فخر ليلقن زبيدة درساً في اللغة الفرنسية ، فكان
يلقى عليها جملاً بالفرنسية مع بيان معانيها بالعربية ويطلب
إليها تكرارها ، وكان لهذه الجمل سبيل واحدة ، فكلها
من أمثال : أحبك ، لقد ملأ حبك قلبي ، لقد ملكت
فؤادي . إن غيابك يؤلني ، إلى غير ذلك من أمثال هذه
الترهات ، وكانت زبيدة تكرر هذه الجمل ذاهلة حزينة .
وبعد انتهاء الدرس أخذ المترجم كعادته يفيض في عظمة
الجنرال وشرف محنته وعلو منزلته ، ويصور لها ما ينتظرها
من المجد الشامخ والعز السامق ، وهي تهز رأسها بحركات
آلية لا أثر للحياة فيها ، وبعد قليل سمعت أصوات الأبواق ،
وعلا صياح الجند بالتحية لقدم الجنرال مينو ، واصطف
الحراس واهتزت أرجاء المكان ، ودخل مينو القصر في
عظمته وجبروته ، فسارتوا إلى حجرة زبيدة فانحنى أمامها
يقبل يدها ، وحيا إلياس فخر بإماعة من رأسه ، وقال :
كيف تلميذتك اليوم ؟ إنها أدهشتني بالأمس ، فقد
فهمت كل ما ألقيته في أذنها من الجمل اللطيفة . ثم
التفت إلى زبيدة قائلاً : ألم تكن لطيفة يا حبيبتي ؟ فأسبلت

عينها في ضجر يشبه الحفر ، وقالت بعد أن تهتت :
نعم لطيفة . ثم قامت تتعثر في أذيالها كما يمشي الحالم ،
وغادرت الغرفة .

وهنا دخل على الحمamy فحيا الجنرال كما تحيا الملوك ،
وانتحي ناحية قاصية في الغرفة حتى إذا أوماً إليه مينو بالجلوس
جلس مطرق الرأس يجمع أطراف ثوبه في أدب وذلة ،
ويخفي قدميه تحت الكرسي مبالغة في الخضوع . فلما
اطمأن به المجلس سأله مينو : هل سافرت السفن إلى
القاهرة ؟

— نعم يا سيدى سافر اليوم عشرون سفينة محملة بالأرز
الأبيض ، فيكون ما بعث به إلى القاهرة في هذا الشهر
سبعين سفينة ، منها ثلاثون محملة قمحاً .

— هل تألم التجار من إرسال هذا المقدار العظيم ؟
— إنهم دائماً يتألمون يا سيدى . ولو ترك لهم الأمر ما
سمحوا بسفينة واحدة ، لأنهم يبيعون أردب القمح خفية
بسبعة عشر ريالاً ، في حين أنه يباع للجيش الفرنسى
بثلاثة ريالات . أما الأرز فكثيراً ما ضبطت السفن وهى
ذاهبة به إلى السوق لبيع هناك بسعر مرتفع .

— ولكنى أخشى ألا نكون قد تركنا لأهل البلد من الحبوب

ما يكفيهم .

— الواقع يا سيدى أنهم فى ضائقة ولكن غلة العام القابل
ستكون وافرة .

وفى هذه اللحظة دخل إينال مملوك الجنرال الخاص وقال
فى صوت خافت : حان وقت الجمعة يا سيدى الجنرال ،
والجنود على استعداد لموكب الصلاة التى ستكون فى مسجد
زغاول . فظهر على وجه مينو الامتعاض الذى يظهر على
وجه مريض تقدم إليه جرعة لا تساغ ، وقام فى تناقل
ودو يقول : الصلاة ، الصلاة ، دائماً الصلاة ، ثم خرج
فإذا موكب حافل من فرسان الفرنسيين وجنود الممالك
والترك ، وقد حمل كل فارس الراية الفرنسية خفاقة فى الهواء
متخيلة فى الفضاء ، والموسيقى تعزف النشيد الوطنى الفرنسى .
وكان مينو فى وسط الموكب فوق جواد كهيت يختال فى
مشيته كأنما سرى إليه زهو صاحبه ، حتى إذا بلغ الركب
المسجد دخل مينو حاسراً عن رأسه ، فتلقاه الإمام وفى
يده عمامة خاصة به كانت تحفظ فى خزانة بالمسجد ،
فلما وضعها على رأسه طافت حول شفثيه ابتسامة خفيفة
مبهمة ، تذكر عندها باريس ، وتذكر ملاهيه فى مرسيليا
وبوردو ، وعجب من الضرورة التى دفعته إلى دين لا يعرفه
بعد أن طلقت فرنسا كل دين . تذكر كل هذا فتملكه
زهو الملوك . وطاف بنفسه أنه فوق طبقة البشر ، غير

أن صوتاً جويّاً في هذه اللحظة انطلق من السدنة فصك
أذنيه صائحاً : الله أكبر ! الله أكبر ! فلم يلبث المسكين
أن نكس رأسه في استخفاء . وعلم أنه لا شيء .

١١

انفردت زبيدة في حجرتها بعد أن تركت مينو ، وقد
ساءها كثيراً حديث العرافة وتكهناتها ، وهجم عليها هم
جاثم لا تستطيع له دفعا ، وهالها أن تصطدم آمالها بصخرة
من الحقائق لا ترحم حزيناً ولا تواسى بانساً . وبينما هي
تحلق في صور ماضيها الجميل وهي تمر بخيالها متتابعة .
وتود أو تستطيع أن تطيل وقفة هذه الصور المرحة الضاحكة
قليلاً ، أو أن تحول دون ظهور أية صورة من ماضيها
القريب الذي كله هموم وأحزان ، إذا خادما سرور
يدق الباب ويعلن قدوم سيده نقيسة . ولم يمض إلا قليل
حتى دخلت أم زبيدة وقد برح بها المرض حتى أصبحت
لا يكاد يعرفها من رآها ، فقد زادت غضون وجهها ،
وانطفأ بريق عينيها ، وانحنى ظهرها تحت ما يحمل من
أرزاء وأعباء . دخلت فقبلت وجنتي بنتها في شغف واحترق ،
ثم حاولت أن تكتم ما يبدو من جزعها بضحكة مصنوعة ،

أو نكته بارعة فلم تستطع ، ولكنها قالت في النهاية :
 كيف حالك يا زبيدة ؟ فتهدت زبيدة طويلاً وقالت :
 - تسألين عن حالى يا أماه ؟ أوتريدين حقاً أن تعرفيها ؟
 إذا فاسمعى : لقد كنت يا أمى فى سفينة بين أهل وأحباب ،
 حديثهم ابتسام ، ومناجاتهم غرام ، ينعمون فيها بنعم الروح
 ولذة الجسد ، بين روح وريحان ، وضحك من القلوب
 لا من الأفواه ، وحب تعجز أن تعبر عنه الشفاه ، كأن
 الدنيا لم تخلق إلا لهم ، والسعادة لم ترف إلا عليهم ، ألغوا
 الزمن فلا ليل ولا نهار ، وألغوا الفكر فلا خوف ولا حذر ،
 وألغوا الغيرة فلا حقد ولا دخل ، وبينما كانت هذه السفينة
 الفردوسية تمخر العباب يا أماه مزدهية مختالة ، تجرى فتداعبها
 اللجج ، وتجر ذيلها فتقبله الأمواج ، إذا عاصفة عاتية
 هوجاء كالجنون ، مدمرة كالموت ، ترفع البحر ثم تقذف
 به ، ثم ترفعه ثم تقذف به ، كأنه كرة فى يد مارد جبار .
 فلم تلبث السفينة يا أماه أن ذهبت بدداً ، وتمزقت قطعاً ،
 وهالنى الأمر ، وأخذ منى الملح فنسيت التدبير ، ونسيت
 الرأى ، ونسيت الحيلة ، وتشبثت بقطعة من السفينة خائرة
 قذفتى بها الأمواج إلى جزيرة فيها أشجار وفيها أنهار ،
 ولكن ثمر أشجارها زقوم ، وماء أنهارها سموم ، وهى قفر
 من بنى الإنسان إلا مخلوقاً غريب السمة جاء يتودد إلى ويتخذنى

له زوجاً . أما أهلى ، وأما أحبائى ، فقد تفرقوا أيدي سبأ ،
وبقيت وحدى فى هذه الجزيرة الملعونة مع هذا المخلوق الغريب .
هذه حالى يا أمى . وكيف حالك أنت ؟

— أنا كنت من ركاب هذه السفينة ، وقذفت إلى جزيرة
أخرى ليس فيها أحد من بنى الإنسان ، ولكنها مملأى بوحوش
من هموم وآلام ، أما أبوك فرماه الموج إلى جزيرة نائية
لا نعرف إليها طريقاً .

— وابن خالى محمود فى جزيرة رابعة ! ! آه يا أماه !
هل يلتقى هذا الجمع الشتيت ؟ وهل تعود تلك الأيام التى
كانت حلماً هنيئاً ؟

— تعود عند ما تهدأ العاصفة ، ويسكن البحر المائج ،
وتجرى السفن مرة أخرى . لحنى على محمود ! لقد وضع
بين يديك حباً لو فرق على الناس جميعاً ما ترك فى صدر
غلاً ولا حفيظة ، فنبذته فى قسوة وعزوف ، فلم ييأس
بل ثنى يده على قلبه صابراً وفيماً وقلبه يقطر دماً ، وراح
يناجى الطير لما صرفت عنه أذنيك ، ويضاحك الآمال
لما أقصاه عنك العبوس . وقد كنت عنده— رضيت أم غضبت ،
وصلت أم هجرت — القدس الطاهر الذى لا يطلب على
حبه ثواباً .

— كفى يا أمى إنك لا تعرفين . قاتل الله رابحة العرافة .

وقاتل الله الطموح الكاذب . وقاتل الله الخيال الخصب
الذى جعلنى أبيع عزاً حاضراً . وحباً ظاهراً ، بأمل عقيم
وأمنية حمقاء . فقدت ما فى يدي لأقبض على برق خلب
يلمع فى أجواز الفضاء !

— أكنت تحبين محموداً حقاً ؟

— كنت أحبه ؟ كنت ولا أزال ولن أزال ، وسأموت
شهيدة حبه . وسأردد للملكين عند سؤال القبر أنى أحبه .
— ولماذا رضيت بهذا الفرنسى ؟

— لأن القدر هو الذى رضى به لى . على أنى أظن
أنى ساعدت القدر بجنونى وتسويفى وتمسكى بخرافة بعث
بها روحى وجسمى للشيطان . بالله دعى الحديث فى هذا
يا أمى ، فإننى أتخيل دائماً أن شبابى ميت مسجى ، وأنى
بجانبه أنثر عليه الدموع .

— ولكن هذا يقتلك يا بنتى ، فاطوى الماضى ، وأصلحى
من شأنك بالطمأنينة لحكم الله . إن حسن الأشياء وقبحها
أمران خياليان : فالنفس الجميلة الراضية ترى كل شىء
جميلاً . والنفس الساخطة الصاخبة ترى كل شىء قبيحاً .
انظرى إلى ما أنت فيه من عز وجاه ، وإلى هذا القصر
الفخم والرياش الفاخر ، ثم إلى هؤلاء الخدم والعبيد وقولى
إنى سعيدة ، وأقنعى نفسك بأنك سعيدة تكونى سعيدة حقاً .

— هيات يا أماه ! هذا كلام لطيف براق . إن من الجائر أن يقنع الإنسان غيره بما يحس أنه حق ، أما أن يقنع المرء نفسه بعكس ما يحسه فهو محال . إن محموداً خلق ليكون لى زوجاً ، وخلقت لأكون له زوجة ، ولكن القدر الساهر أراد أن يتحكم فى طبائع الأشياء . وأن يعبث بالغرائر والميول ، فاستهوى غرائزى وخذع ميولى . فأغلقت باب سعادتى بيدى ، وسنتت السكين لقطع كل صلة بينى وبين السعادة والحب والحياة . ويحى عليك يا محمود ! إنك تظنى امرأة غادرة فاجرة ، ولك الحق فى أن تظن ما تشاء . أفنيت كل أساليب الاستعطاف والغزل والتذلل والاستجداء أمام قلب صخرى كان عنك ذاهلاً تغويه الأحلام ، وتصده دونك الأوهام . لم لا أظير إليه فى القاهرة وأحطم هذه القيود الظالمة التى يسمونها قيود الزوجية ؟ وهل كانت الصلة بينى وبين هذا الفرنسى شرعية ؟ وهل ينعقد زواج فتاة فر أبوها فاقتنصتها طائفة من أصحاب المنافع من أهلها فكتبوا ما كتبوا وسجلوا ما سجلوا ؟ وهل يعد قبول فتاة فى هذيان حى الأوهام ، وجنون الطموح المأفون قبولاً ؟ لا يا أماه . إن الناس جميعاً يعدونى خليلة لهذا الفرنسى . وإن ائثار طائفة من العائم بفتاة مسكينة ، وتدوين عقد زواج فى محكمة ، لا يغير من وجه المسألة شيئاً . إن الشرع

الشريف كما أخبرني الشيخ صديق يوجب الكفاءة بين الزوجين . وأول ما أفهمه من معنى الكفاءة إنما هو تماثل الأخلاق واتساع الطباع . وأين ذلك التماثل بين فتاة مصرية في رشيد وشيخ فرنسي من باريس ؟ وقد كان محمود العسال يقول لى إن زوج الرجل يجب أن تكون قطعة منه ، ويكرر الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . فالقرآن ينص على أن الزوجة من نفس الرجل ، ويجعل ذلك سبباً للسكون إليها والسعادة في كنفها ، وتبادل المودة والرحمة والحنان بين الزوجين . وأعتقد أن هذه الآية صورت في إيجاز ما يريده الفقهاء من معنى الكفاءة الزوجية ، لأن المرأة إذا كانت من نفس الرجل وجب أن يتماثلا في الحب والعادات والأفكار والميول . . . وأين أنا من هذا الفرنسي ؟ شرق وغرب بينهما آميال وأميال ؛ وتباين كامل في كل شيء ، فهل بعد هذا أخضع لهذا الزواج ؟ وهل بعد هذا أرضى بهذا السجن الموحش ولا أفر إلى محمود ؟

— بالله عليك يا زبيدة لا تضحى إلى حزننا حزناً جديداً ،

فقد طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبي .

— إن الفرار من العار ليس بعار .

— ولكن فرار الزوجة من بيت زوجها إلى بيت رجل

آخر عار أى عار . ثم من هو زوجك ؟ هو رجل نافذ الأمر قوى السلطان شديد البطش ، فلو فررت منه فى أنفاق الأرض ، أو أبراج السماء لامتدت إليك يده . ولنكل بك وبنا وبابن خالتك محمود . على أن فرارك سيثير الفضيحة من جديد ، وبينه العقول إلى أمر أوشكت أن تنساه ، ويجرى الأيدى القاسية على العبت يجرح أخذ يندمل .

— ليس لشيء من هذا يا أمى أخشى الفرار ، فما أبالى الناس ولا آبه لحديثهم إذا ظفرت بمحمود ، ولكنى أخشى الفرار لشيء واحد كلما مر بخاطرى وددت أن الأرض ابتلعنى ، أو أن السماء أقلتني . ويلاه يا أمى ! إني أخشى ألا يمر بنا هذا الحادث دون أن يضع وصمته .

— ماذا تقصدين يا زبيدة ؟

— أقصد أن المرأة إذا عاشت مع رجل شهوراً ففى أغلب الظن أن ينشأ بينهما ثالث .

— وهل شعرت بما تشعر به الحامل ؟

— لا ، ولكن من يدرينى ؟

— صانك الله يا ابنتى من كل سوء ، وكشف عنك كل ضرر .

— ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله ، فإن فى الالتجاء إلى

رحمته راحة للمحزونين . أسمعت شيئاً عن أبى ؟

- لا يا زبيدة ، وقد كتبت إلى أختي أمينة وإني محمود
فكان جوابهما أمهما لم يعثرا له على أثر بالقاهرة بعد طول
البحث ، وأخشى أن يكون . . .

- لا تقوليها يا أمي ! فيكفي ما نحن فيه من مصائب
وأحزان . وهنا دخل سرور في أدب وتردد ، وجثا على
قدمي نفيسة باكياً وهو يقول : يا سيدتي لا تحرمي سيدتي
الصغيرة من زيارتك فإني أراها دائماً حزينة كاسفه الببال ،
فيتقطع قلبي . ويشتد ألمي ، لأنها ابنتي ، ربيتها على كفي ،
وكنت أطعمها فأشبع ، وأسقيها فأروي . إنها تغلق عليها
باب الغرفة طيلة النهار لتنفرد بأحزانها وبكائها . وماذا يجدي
البكاء ؟ وهل ينفع حذر من قدر ؟ إنها ليست بنتي زبيدة
التي أعرفها من حين أن كانت في مهدها . أين ضحكاتها
المجلجلات . وبسماتها الساحرات ، وأحاديثها الفاتنات ؟ لا تغيب
عنها ياسيدتي !

فقاطعته نفيسة وقد وضعت يدها على كتفه في حنان ،
وقالت :

- لن أغيب عنها ياسرور ، إنني لم يبق لي من الدنيا
إلا زبيدة وأنت ، فأحرسها لي يا سرور ، واسهر عليها وصنمها
بروحك ودمك . إن أول شيء اشترطته عند زواجها أن
تكون معها ، فهي وديعتي عند الله وعندك ، وهذا هو الذي

يهدئ نفسي . ويخفف من شجوني . ثم أسرعت فقبلت
 زبيدة . وحيث سروراً ، وخرجت وهي تخفى تحت نقابها
 سيلا من الدموع .

١٢

نعود بالقارئ إلى القاهرة بعد أن قضينا معه وقتاً طويلاً
 في رشيد لئرى أن الخطوب فيها مازالت تتلاحق وتتعاقب ،
 وسحائب الكوارث ما فتئت تتجمع وتتراكم . فقد غادر نابليون
 القاهرة على حين غفلة من جيشه ومن أهلها ، في الثامن
 عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد أن رأى آماله ركاماً ،
 وأطاعه أحلاماً ، وبعد أن سمع بأذنبه ضحك القدر ،
 وأحس بسخرية الأيام . فانطلق به النيل إلى أحد شاطئيه
 بالقرب من الإسكندرية حزيناً مهموماً ، يرى في كل موضع
 قدم قبراً ، وفي كل لجة من لجج البحر شركاً . انطلق به
 النيل وطفق يجرى ويمور كما كان يجرى ويمور منذ القدم ،
 وأخذت أمواجه تقهقه من طموح الإنسان ، وتحديه
 أحكام الزمان . نابليون يعود أدراجه إلى بلاده مخاطراً بنفسه ،
 بعد أن انقطعت به إليها السبل ، وربضت له بوراج الإنجليز
 في البحر تنتظره ، كما ينتظر الأسد الطاوى فريسته ! جاء

إلى مصر فلم يظفر بشيء ، وأضاع كل شيء ، فكم وعد
وكم صانع ، وكم تنمر وهدد ، فلم تفتح له مصر قلبها ،
ولم تلق أمام قوته سلاح ضعفها . قامت الثورات في كل
مكان فعجز بطل إيطاليا وقاهر النمسا ، والفارس المعلم
في فرنسا . أن يخذ نارها أو يطفىء أوارها . ولم تغن عنه
عدده وآلاته الحديثة شيئاً أمام عصي المصريين المخلصين ،
الذين قذفوا بأنفسهم للموت في سبيل وطنهم . ثم ذهب إلى
الشام فلقنه الجزائر درساً أطار من نفسه ذلك الزعم ، الذي
سول له أنه رجل الدنيا وواحدتها . نظر - وهو يغادر مصر -
إلى جنوده المغاوير ، فإذا هم حفنة من المهازيل الساخطين ،
أكلت الحروب والثورات والطواعين خيرة رجالهم ، وحصدت
نخبة أبطالهم . ثم التفت فرأى الجوع والفقر والسخط في
ظل سياسته ، يمزق أوصال مصر ويهدد كيانها ، وأن
قوانينه وفلسفته لم تجعل مصر سعيدة ، وأن ما جمعه من الضرائب
والمكوس لم يكف لنفقة جنده وأن إيراد مصر أيام المماليك
الجهلة الأغبياء كان أربعة أمثال إيرادها في عهده المتألى
الزاهر ! فكر في فرنسا وفيمن فيها ، فإذا هم أعداء ألداء
قذفوا به في أتون مصر ، ليستريحوا من توثبه وطموحه ،
وإذا زوجه « جوزفين » التي ألقى بحبه تحت قدميها ،
تدوس ذلك الحب وتنسى ذكره ، كأنها أضغاث حالم .

ذكر كل هذا وهو واقف إلى جانب قصر القياصرة ،
على شاطئ البحر بالإسكندرية ، فبكى ملء عينيه ، وأن
أنين البائسين .

سافر نابليون إلى فرنسا بعد أن جعل الجنرال كليبر
خلفاً له بها . وكان كليبر شديد الاعتداد بنفسه ، مولعاً
بمظاهر الملك . وقد فدح المصريين في أول عهده بفنون
من الضرائب اعتصرتهم اعتصاراً ، فزاد سخط الناس ،
وتأججت الصدور بالغيظ ، وكثرت الاجتماعات السرية
والمؤامرات . وكان محمود العسال في ذلك الحين لا يزال
بالقاهرة ، وكان يكثر من زيارة لورا ونيكلسون . وقد آن
لنا أن ندون هنا أن هذه الزيارات المتكررة ، إلى قنوطه
من التزوج بزبيدة ، إلى ما كان يحسه من عطف لورا
ورقتها وقوة جاذبيتها ، جعلته يحن إلى بيت نيكلسون ويشعر
عند مشاهدة لورا والجلوس إليها بلدة روحانية عجيبة ،
أبى عليه كبره أن يعللها ، لأنه كان يريد أن يقبر حب
زبيدة في قلبه ، وأن يعتز به ويتسلى بذكرياته ، وإن كان
حباً يائساً عقياً . وحينما رأى نيكلسون تكرار هذه الزيارات ،
وقرأ في وجه ابنته ابتهاجها بها ، عرض عليه أن يساكنهما
في هذا الزمن المضطرب بالمخاوف والأحداث . فقبل
محمود شاكرأ ، وانتقل من بيت ابن عمه حسين إلى بيت

لورا بالكحكيين . وكان يخرج مع نيكلسون لزيارة المتأمرين على الفرنسيين . أمثال الشيخ السادات . والسيد عمر مكرم . والسيد المحروقي . وغيرهم . وكانا يستقطان بين الحين والحين على الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، ليلتقيا منه أخبار القاهرة والأقاليم . فغشيا داره بالصناديق ذات ليلة ، فوجداه منحنيًا على بعض الأوراق وقد وضعها على فخذه ، وأخذ يكتب فيها مادون في صحف انتشرت حوله . فلما دخلنا دعر الشيخ أول الأمر ، وانكب على الصحف يجمعها ويخبئها تحت سجادته ، ولكنه حين عرفهما أخذ يقهقه ويقول : لاتؤاخذاي يا سيدى ، فإننا أصبحنا في زمان نخاف فيه من خيالنا في المرأة . أسعد الله مساءك يا سيدى محموداً . ثم اتجه إلى نيكلسون وقال : كيف حال الحاج السوسى ؟ هل من أخبار ؟ - الأخبار عندك أنت يا مولانا .

- عندي أخبار سارة ، ويا حبذا لو صحت الأحلام ؟ فأسرع محمود سائلا في لطفة واضطراب : وما هي يا مولانا الشيخ ؟

- علمت اليوم فقط من المعلم نقولا الترك المترجم ، أن كليبر في أول ولايته كتب إلى الصدر الأعظم للدولة العثمانية رسالة مطولة يطلب فيها الصلح بين الدولتين . وأن تعقد معاهدة لخروج الفرنسيين من مصر .

فقال نيكلسون : هذا ما ظننته ، فإن موقعة أبي قير الأولى التي حطمت سفنهم ، لم تترك في نفوسهم خيالا من أمل في البقاء بمصر . ثم قال الشيخ الجبرتي :
 - وبلغني أن الأتراك بعد أن قابلوا هذا الطلب بالازدراء ، أرسلوا بسفنهم وجنودهم - كما تعلمون - إلى دمياط ، فهزمتهم الفرنسيون شر هزيمة . فقال محمود : نعم ياسيدي إن كارثتنا بأصدقائنا أنكى من كارثتنا بالفرنسيين . فاستمر الشيخ وقال :
 - ولكن الفرنسيين - على الرغم من انتصارهم - ألحوا في طلب الصلح من العثمانيين . وقد علمت أن معاهدة وضعت شروطها باتفاق الفرنسيين والترك ، والإنجليز والروس . وأن خير ما في شروطها أن يخرج الفرنسيون من مصر ، وأن يؤمن سفر الجيش الفرنسي الذي يبحر من مصر بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا . فقال محمود :

- يا فرج الله ! وقال نيكلسون وهو يهز رأسه هزة نفي واستنكار :

- يخرج الجيش الفرنسي آمناً بعدده وآلاته ، ليشعل نار الحرب من جديد على إنجلترا . ما أظن إنجلترا ترضى بهذا . فقال الشيخ الجبرتي :

- إن « سدن اسميث » أمضى هذه الشروط .
 - ما أظن . وهنا قال محمود لنيكلسون : يا سيدي إذا

أرادت إنجلترا أن تمزق جيش فرنسا فلتخرجه من مصر
أولا ، ثم تمزقه في أى مكان آخر !

— أتمنى يا محمود أن يحقق الله ما تريد ، فقد نزل بمصر
من الولايات ما يدك الجبال ، وإذا لم توافق إنجلترا على هذه
المعاهدة ، فستكون الكارثة أفدح والبلاء أعظم ، ولكنى
أعرف سياسة إنجلترا ، وقليل ما تكذبني ظنوني .
وصدقت الأيام ظنون نيكلسون ، وأبت إنجلترا أن توافق
على المعاهدة فنقضها الفرنسيون وبرز « كليبر » بجيوشه لمحاربة
العثمانيين عندما بلغت جيوشهم « عين شمس » .

عندئذ اجتمع عدد عظيم من المتآمرين بدار السيد عمر
مكرم ، وكان بين الجمع الشيخ السادات ، والسيد أحمد
المحروقي ، والشيخ الجوهري ، ونيكلسون ومحمود العسال .
وبعد أن طال الاجتماع وزاد اللغط والجدال ، دخل الحاج
مصطفى البشتيلي زعيم الثوار ببولاق فقال : إن العثمانيين
دخلوا القاهرة وانتصروا على الفرنسيين في موقعة عين شمس .
فصاح محمود العسال .

يجب أن نقضى على الحامية الفرنسية الباقية بالقاهرة ،
وإلا نبتى على أحد منهم ، فصمم الجميع على الجهاد ،
وأرسلوا المنادين يدعون الناس إلى إقامة المتارس وحفر الخنادق ،
وبعثوا البعوث في شمال مصر وجنوبها لبث روح المقاومة

والعصيان في كل مكان . وزاد في حماسة المصريين دخول
 ناصف باشا قائد جيش العثمانيين إلى القاهرة ، وحوله عدد
 من كبار قواد المماليك . وكان من أشد الناس نهوضاً بالأمر
 وتعصباً له ، أعرابي ملثم ، أخذ يعدو بجواده بين أحياء
 القاهرة محرضاً مشجعاً داعياً إلى الموت في سبيل الله والوطن .
 ذهب نيكلسون ومحمود إلى دارهما بعد أن انفض الاجتماع ،
 وقد هالهما ما رأيا وسمعا ، وتوجسا خيفة من عواقب الأمر ،
 ونحشياً أن تبوخ الثورة كما باخ غيرها ، وتعود مصر إلى
 الأسر المهين .

قابلتهما لورا مذعورة وقالت : ما هذا يا محمود ؟ إنى
 رأيت من النافذة رجال الحى جميعاً يتسلحون للقتال ، وشهدت
 فارساً أعرابياً يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم على قتال الفرنسيين !!
 — هذه الثورة يا لورا ، وهى آخر سهم في الكنانة ،
 فإذا أخذت فقدنا كل شيء .

— لن نخمد ، وليست هى آخر سهم في الكنانة ،
 إن الشجاع دائماً يخلق من اليأس أملاً ، لأن اليأس فيه
 معنى الموت ، ولأن في الشجاعة معنى الحياة . ادخلا
 وأخبرانى بكل شيء ، فقال نيكلسون .

— إن الأمة أجمعت على الجهاد يا فتاتى ، وإن الفرصة
 مواتية ، فلم يبق من جنود الفرنسيين عدد يؤبه له ، أو يستطيع

الصمود أمام الكثرة والتضحية .

— هذا صحيح يا أبى . ثم عادت إليها غريزتها النسوية ،

وما تشعر به المرأة من الخوف والإشفاق على من تحب ،

فقلت : وهل تحارب يا محمود ؟

— سأكون فى أول الصفوف ، وإذا بترت يمينى انتقل

السيف إلى شمالى . إننى يا لورا كلما فكرت فى أنك من

أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين ، ولحمت ما فىك

من الاعتزاز بقومك الذين لا يحوم بخيال غاصب أن يقترب

من شواطئهم ، أدركنى ما يشبه الحسد ، ووددت أن أفخر

بيلادى وقومى كما تفخرين .

— ستفخر يا محمود ببلادك ، وهى خالصة لأمتك لا يتحكم

فيها غاصب ، وإذا لم يتنفس لك العمر ، فسيفخر التاريخ

بك وبأمثالك المجاهدين . وأنت يا أبى ماذا سيكون شأنك ؟

— سأكون بجانب محمود ، وسأجاهد فى سبيل مصر

جهاداً يحسدنى عليه أبناؤها .

ثم قامت لتعد الطعام ، وهى فى خوف ووجل وإشفاق ،

وتمنت لو ظفرت بمحمود وبجب محمود فى بلد هادئ

أمين ! وصورت لها الهواجس صوراً مخيفة ملأت نفسها رعباً .

إن محموداً مقدام مخاطر ، وهو إذا حمى وطيس الحرب

أدركه جنونها فقفذ بنفسه للموت سمحاً كريماً . ولكن

هذا الخلق هو الذي تحبه فيه ، وهو الذي تعشقه من أجله ، فكيف تنوده عما تحب ؟ ولو أنه أطاعها لعاد في عينها فسلا مسلوب الرجولة هزيلا .

وأشرقت شمس اليوم الحادى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٠ على مصر كلها أشأم شروق وأنحسه ، وكان حمرتها عند البروغ دماء الشهداء الذين كتب عليهم أن تحصدهم المدافع وتنوشهم السيوف البواتر ، وكان أشعتها وهى تضطرب فى الأفق ، أسباب المنية امتدت فجمعت أبناء مصر المساكين فى شباكها .

خرج نيكلسون ومحمود فى هذا الصباح ، وودعهما لورا والهة حزينة ، تظهر الجلد بقدر ما تستطيع ، فإذا غلبها الدمع قهقهت لترغم أن دموع الحزن من دمعات السرور . خرجا فوجدوا القاهرة فى هرج وحرمة دائبة ، واستعداد للوثوب واستخفاف بالموت ، وختل البيوت من قطانها ، واختلط الحابل بالنابل ، وتسلىح كل من يستطيع بما يستطيع ، فمنهم من كان يحمل سيفاً ، ومنهم من كان يحمل بندقية ، ومنهم من كان يلوح بعصا غليظة فى الفضاء ومنهم من تسلىح بسكين ماضية . أما الأطفال والنساء : فملئوا حجورهم بالأحجار وساروا خلف الشجعان المجاهدين ، يتنعمون بأناشيد نظمها الفطرة الساذجة ، فأذكت من نار

الحماسة ما تعجز عنه بدائع الأشعار . وقد قسموا أنفسهم فرقاً ، وأقاموا المتارس في جميع أحياء القاهرة وبولاق ، ووثب بعض الثوار وفي مقدمتهم نيكلسون ومحمود على معسكر الفرنسيين في ميدان الأزبكية كما تثب أمواج البحر الخضم على الشاطئ لتتكسر ثم تعود . وكان الفرنسيون - وقد امتلكوا القلاع والتلال حول المدينة - يصبون عليها وابلاً لا ينقطع من النيران والقذائف ، يدك أرجاءها دكا ، وينشر الذعر والموت في كل مكان . وشمر الترك والماليك عن سواعدهم وصالوا في المدينة وجالوا ، وأخذوا يرسلون النجدات ويقوون العزائم . وبينما كان نيكلسون ومحمود عائدتين إلى دارهما في أصيل ذلك اليوم ، إذ لمح محمود الأعرابي المثلث ، وهو ينحوض بفرسه في جحيم المعامع فالتفت إليه محمود - وكانت حماسته قد حسرت من لثامه - فإذا هو زوج خالته السيد محمد البواب ! فتملكه الدهش ووثب حتى أخذ بعنان فرسه وصاح : خالى ! أنت هنا ؟ أنت بالقاهرة ؟ إني لم أدع ركناً في المدينة إلا بحثت عنك فيه . ثم حبسه البكاء عن الكلام ، فوثب السيد البواب إليه وعانقه ، وارتفع البكاء والنشيج . ولغة الوجدان دائماً أفصح من لغة اللسان . حتى إذا هدأت نفسها قليلاً ، قال محمود في صوت خافت حزين :

— لم تسطع البقاء في رشيد يا خالي ؟

— إن حياة الكريم ليست نفساً يذهب ويجيء ، وليست

طعاماً وشراباً ، وإنما هي شرف وكرامة ، فإذا امتهن الشرف

وضاعت الكرامة كان الكريم بين إحدى خلتين : إما أن

يموت ؛ وإما أن ينتقم . وقد جئت إلى القاهرة لأنتقم ،

ولأغسل غيظي بدماء أعدائي .

— ذلك ما أفعله أنا الآن ، وهذا ما سأموت في سبيله .

وكيف جئت يا خالي ؟

— غادرت رشيد ومعى مقدار من المال ، فسافرت إلى بادية

البحيرة . وكان لي بين عرب « الهنادى » صديق قديم ،

فترلت بنخامه وأخبرته بفاجعتي ، فأظهر لي من حسن المواساة

وكرم الضيافة ما هو خليق بالعربي الكريم ، ثم غيرت

زبي عنده ، ورحلت مع ثلاثة من أتباعه ، حتى وصلنا

إلى القاهرة فترلت بنحان جعفر بنخطة سيدنا الحسين ، وعزمت

على إخفاء أمرى والجهاد في سبيل الله ، حتى ألقى الله .

— لا يا خالي ، لا بد أن تنزل عندنا . ثم أشار إلى نيكلسون

وقال : هذا صديقي وأخى في الجهاد الحاج محمد السوسى .

انظر إليه فهل تعرفه ؟ فحدق فيه السيد البواب طويلاً

وقال مردداً : أعرفه . . . ؟ أعرفه . . . ؟ وكيف لا أعرفه ؟

إنه الحاج نيكلسون تاجر الصوف والحرير برشيد ، ثم

طوقه بذراعيه في شوق وحب صادقين وهو يردد : كيف حالك يا خواجه نيكلسون ؟ أو إن شئت : كيف حال الحاج محمد السوسي ؟ ما كدت أعرفك لولا أن نبهني محمود ، لقد تغيرت كثيراً يا نيكلسون في زمان تغير فيه كل شيء .

ثم الح عليه محمود أن ينزل معه بدار نيكلسون فقال : دعني يا بني فإني أستأنس بوحشتي ، وأرتاح إلى وحدتي ، ثم أنساب كما ينساب السهم فلم يريا إلا غبار جواده . وعاد نيكلسون ومحمود إلى دارهما ، فأخبرا لورا بحوادث اليوم . وكان نيكلسون حزينا شديداً التطير ، وأخبرها محمود بما كان من لقاء زوج خالته ، وبما كان يظهر عليه من الحزن وحب الانتقام ، فعجبت لورا وقالت : السيد محمد البواب أصبح فارساً مغواراً ؟ ! هكذا تخلق الحوادث الرجال ! ! وهنا قال نيكلسون لمحمود : رأيت اليوم كيف يندع الممالك الشعب المصري الأعزل المسكين ؟

— كيف ؟ !

— زعموا أولاً أن الجيش الفرنسي انهزم بعين شمس ، وكان كل ذلك كذباً وزوراً ، ثم إن نصوحاً باشا كان يندع الناس اليوم ، حينما أرسل المنادين في أرجاء البلد بصيحاتهم بأن يوسف باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية ، سيصل

غداً أو بعد غد بجيشه اللهم ، ليستأصل شأفة الفرنسيين .
والصدر الأعظم - كما أعلم علم اليقين - فر بجيشه إلى
الصالحية ولن يعود .

- تبا لهم من قتلة سفاكين ! ! والآن وقد لعق الشعب
لحامه ، وأطارت الثورة عقله ، وأصبح من العسير أن يكبح ،
ماذا ترى يا نيكلسون ؟

- أرى أن العاقبة غير واضحة ، وأنه يجب علينا ألا
نجبن أو نعتزل القتال ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وهكذا توالى الأيام والثورة مشتعلة الأوار ، وفي كل
يوم يضعف المجاهدون ، ويقوى الفرنسيون ، واستمرت
المدافع تصب حميمها على المنازل ليلاً ونهاراً ، فهجر الناس
بيوتهم ، وتهدم أكثر من نصف المدينة ، وبذل المصريون
جهد الياثسين : فأنشئوا معملاً للبارود في بيت قائد أغا
بالخرنقش ، ومصنعاً لإصلاح الأسلحة وصب المدافع ،
وجمعوا كل ما استطاعوا الحصول عليه من حديد ونحاس
ونخشب ، ولكن كل ذلك لم يغن فتيلاً أمام قوة الفرنسيين
الجبارة ، ومما زاد الحال سوءاً حصار المدينة وامتناع وصول
الأقوات إليها ، فجاج الناس ، وانتشرت الأمراض ،
وخرجت النساء مولولات صاخبات باكيات ، يصورن
الهزيمة والذعر ، والمسغبة وضبعة الأمل .

وبينما كان الفرنسيون في اليوم الثاني عشر من إبريل
 يحاولون احتلال كوم أبي الريش بالفجالة ، بقيادة الجنرال
 روبان ، إذ رأى محمود العسال زوج خالته فوق جواده
 وهو يصول بين الفرنسيين غير هباب ، ورصاص بنادقهم
 يبني فوقه ظلة من الموت ، فدعر محمود وتقدم لإنقاذه ،
 ولكنه قبل أن يصل إليه رآه يترنح فوق فرسه ، وقد أصابته
 رصاصة في العنق ، فأسرع إليه فاخطفه من سرجه ؛
 وحمله فوق كتفيه . وما كاد يسير قليلا حتى أصابته رصاصة
 في فخذه ، فسقط على الأرض بحمله . وفي هذه اللحظة
 وثب نيكلسون فجر الرجلين إلى مكان أمين . وكان محمود
 شديد التألم من جرحه ، أما السيد محمد البواب فكان يجود
 بأنفاس قصار ، ويردد كلمات أقصر من أنفاسه ويقول :
 الحمد لله ! قتلت خمسة هذا اليوم ! شفيت نفسي ، وأطفأت
 غلي ، ما أهون الحياة في سبيل الشرف ! ثم فاضت روحه
 شهيداً كريماً ، فاكرى نيكلسون حمارين واتجه بالرجلين
 نحو داره ، فلقيته اورا مذعورة ، وجاء بعض الجيران
 فحملوا الجريح والقتيل ، وكانت الشمس قد غابت في
 الأفق ، فشمّل القاهرة ظلام دامس ، يزعجه قصف
 المدافع ، وندب الشكالي وأنات الجرحى ، وصياح الأطفال
 الحائقين الجائعين .

جهاز الميت الشهيد ودفن في الصباح ، وأخذت لورا تبذل ما استطاع في علاج محمود وتمريضه ، والهلم يكاد يعصف بفؤادها . ودهمت محموداً الحمى ثلاثة أيام لم تغمض فيها جفنًا ، ولم تحبس دمع عين ، وأراد أبوها أن يتناوب معها السهر عليه ، فأبت وقالت في سخرية مصنوعة : ما أكثر طمعكم أيها الرجال ! ! لم تكتفوا بمنع المرأة من الجهاد في ميدان القتال ، حتى جئتم تشاركونها في نصيبها القليل من العناية بالجرحي ! دعني يا أبي فإن للمرأة صبراً ليس للرجال . ثم ضحكت وقالت : وإن للمرأة قوة روحانية تبعث في المريض الأمل وحب الحياة .

أفاق محمود من الحمى ضعيفاً هزيباً ، ورأى من رعاية لورا له وحبها عليه ، وتفرغها لخدمته ، وافتنانها في تسليته ، والترويح عنه - ما ملأ قلبه حباً لها ، وإعجاباً بخلقها . ثم نظر فرأى جمالاً يأخذ باللب ، ويملأ العين والقلب ، وقد كان إليها قبل ذلك دائم الحنين . ولم يكن يحول بينه وبين مصارحتها بحبه ، إلا كبر موهوم ، وعزيمة كاذبة ، هي أن يصون قلبه لحب زبيدة وألا يزحمه بحب جديد .

ولكن أين زبيدة الآن ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟
 إنها زوجة ؛ إنه فقدتها إلى الأبد . إنها بعد أن تزوجت بالأجنبي
 أصبحت لا تصلح له ولا يصلح لها .. وإن التثبيت بحبها
 خيال شعري ، لا يستطيع أن يثبت أمام قسوة الحقائق .. .
 جالت كل هذه الحواطر بنفس محمود وهو ينظر إلى لورا ،
 وقد كانت تغسل جرحه وتعد له الأربطة واللفائف فقال :

— لقد أزعجتك يا لورا وأتعبتك .

— أنت دائماً رجل متعب يا محمود ، وإذا أردت أن
 تريحني فباعد بينك وبين الخطر .
 — وهل يسوءك أن يدفع المرء عن وطنه ؟
 — لا . وهذا خير ما أحبه فيك ، ولكن يسوءني أن يمسك
 سوء .

— ولماذا ؟

— هكذا أنت دائماً كالأطفال ، تحب أن تعرف كل
 شيء .

— أتخافين عليّ حقاً ؟

— إنني أخاف دائماً على الأبطال .

— وتحسينهم يا لورا ؟ فثارت عواطفها ، وطفرت من عينيها
 دمعتان ، وأسرعت فقالت : وأحبهم .

— وإذا كانوا يحبونك يا لورا ويقدمون قلوبهم بين

يديك ، فهل تحبينهم حباً آخر؟؟ ؟

– وهل الحب أنواع ؟

– الحب أنواع وأشكال : حب الرجل للوطن ، وحب

الأم لولدها ، وحب الجندی لقائده ، وحب الفتى للفتاة .

فتلعثت لورا وقالت : وما شأنك بهذا الحب الأخير ؟

– هو حبي لك يا لورا الذى فيه حياتى وشرفى ، وفيه

نعيمى وجنتى . ثم مد إليها ذراعيه وجلا مستعظفاً ، فسقطت

بينهما باكية وهى تتمتم : أحبك يا محمود ، وأحبك من

حين أن رأيتك ، وأحبك لأنى أرى فيك كل ما يصوره

خيالى للرجل الكامل ، من بطولة وكرم ودين . أحبك ، أحبك .

فقبلها محمود بين عينيهما وقال وهو يلهث : وهل تقبلينتى

زوجاً ؟

– ذلك كان أملى فى الحياة .

ثم أخذوا فى الحديث والضحك والقبل ، وبعد قليل

دخل نيكلسون يسأل عن المريض ، فصاحت لورا :

احذر يا أبى أن ترزعج زوجى بكثرة الأسئلة ؛ فهت نيكلسون

وأخذ يتأمل فيهما مشدوهاً ، وهما يضحكان . فقال محمود :

نعم زوجها بكتاب الله وسنة رسوله . ووثب نيكلسون على

لورا يقبلها ويقول : لك تهنئتى ودعواتى يا لورا . نعم الصهر

ونعم الكفاء محمود . هذا أسعد يوم في حياتي . كان هذا الحاطر السعيد يطوف بخيالي فأظنه بعيداً ، وكنت أعتقد أن ابنتي لورا لا تصلح إلا لمحمود .

ثم اتجه نحو كرسي ليجلس عليه ، فصاح به محمود لا تجلس يارجل ! الآن تجد جارنا الشيخ محمداً الصعيدى في داره ، وتستطيع أن تتفضل بدعوته ليعقد العقد . فخرج نيكلسون غير متباطيء وأحضر الشيخ الصعيدى وتم العقد ، وأصبح محمود العسال ولورا نيكلسون زوجاً وزوجة .

ومضى على الثورة ثلاثين يوماً ، وهى تحصد الأرواح حصداً ، وتدمر كل شىء تدميراً . ولما اشتد الخطب ، وعظم الهول ، وبلغت القلوب الحناجر ، قام وفد من العلماء وألح على ناصف باشا وإبراهيم بك وغيرهما أن يضعوا حداً لهذه الفاجعة . وتم إبرام الاتفاق بين الترك والفرنسيين في الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ على أن يغادر العثمانيون مصر ، وعلى أن يصدر كليبر عفواً عاماً عن جميع سكان القاهرة . وعاد النفوذ للفرنسيين كما كان وزادهم الظفر تمكناً وسلطاناً .

وفى هذه الأثناء تماثل محمود وعادت إليه قوته ، وبينما كان فى منزله فى أحد الأيام ، إذ سمع طرقاتاً على بابه ، فلما فتح رأى سروراً خادماً زبيدة فدهش لرؤيته ، واستقبله

استقبال الصديق ، وشد على يديه في شوق وترحيب وقال :
 أهلا بسرور . ما كنت أتربأ أن أراك بالقاهرة ! كيف
 حال أهل رشيد ؟ ثم تردد قليلا وقال : وكيف حال بنت
 خالتي زبيدة ؟

— كلنا بخير يا سيدى والحمد لله على سلامتكم . لقد
 انتقل الجنرال مينو من رشيد وعين حاكماً للقاهرة ، وجئنا
 منذ عشرة أيام ، وجاءت معنا سيدتى نفيسة ، وسكننا بالقلعة .
 وقد أحببت سيدتى زبيدة وسيدتى نفيسة أن ترياك ، فسألنا
 عن منزلك وجئنا ، وهما الآن بالحارة تنتظران .

فلما سمع محمود ذلك أسرع إلى الباب وثباً ، وحينما
 وصل إلى الحارة رأى زبيدة وأمها ، فحياهما في تكريم
 وحفاوة وشوق ، وقادهما إلى مسكنه . وأقبلت لورا فمدت
 ذراعها لزبيدة وملأت وجهها بالقبل ، ثم مالت على يد
 السيدة نفيسة فقبلتها وقالت : من كان يظن أن يجمع الله
 الشيتين بعد أن حالت بينهما الخطوب والأحداث ؟ فالحمد لله
 على السلامة يا زبيدة ، شرفت يا سيدتى نفيسة . لقد أراد
 الله بكما خيراً أن كنتم بعيدتين عن القاهرة في أثناء الثورة
 لقد قضينا ثلاثين يوماً كنا نموت فيها ونحيا في كل يوم
 ألف مرة . فقالت زبيدة في ضجر وألم : وهل نجت
 رشيد من الثورة ؟ إن جميع البلاد المصرية كانت شعلة من

النيران . فأشارت لورا إلى محمود وقالت : لقد كدنا نفقد في الثورة هذا الولد المدلل المخاطر . فنظرت إليه زبيدة ، والشوق يكاد يفضحها ، وقالت : لقد خلق محمود جريئاً لا يبالي بالأخطار ، ولا بد له من يد حكيمة حازمة تكبح جماحه . فضحك محمود وقال : إني سأتعب يدك كثيراً يا لورا ، لأنني فرس جموح . فهال زبيدة ما تسمع ، وراعها أن ترى تلك السهولة في الحديث بين لورا ومحمود وقالت : أظن أنه يجدر بك يا محمود أن تذهب إلى رشيد بعد هذه الغربة الطويلة والجهاد الممض ، فإن أمك تتحرق لرؤيتك . فأجابت لورا : إنه أقسم ألا نعود إلى رشيد إلا بعد أن يغادر الفرنسيون أرض مصر . فقالت نفيسة : أتتوين العودة إلى رشيد يا لورا ؟ فأطرقت لورا في حياء وقالت : أنا سأكون دائماً حيث يكون محمود . وهنا أسرع محمود فقال : لقد نسيت أن أخبركما أننا أصبحنا زوجين ، فقالت نفيسة وقد دهمها الخبر : مبارك . مبارك . أرجو أن يكون زواجاً سعيداً . ثم تهتت وبلعت ريقها ، واحتالت على ابتسامة خفيفة تخفي بها ما أصابها من ألم وحسرة . أما زبيدة : فقد أخذتها عاصفة من الدهول والحزن والغيرة ، فأطرقت واجمة كأنها كانت تسمع صحيفة الحكم عليها بالموت ، إنها تحب ابن خالتها حباً يقهر كل حب ، وتهيم به هيأماً

يعصف بكل هيام ، وهو لها دون غيرها ، وهو تمثال
غرامها الطاهر ، فكيف تمتد إليه يد ؟ وكيف تجرؤ امرأة
أخرى على أن تنعم بحبه ؟ ولكنها هي التي نبذت هذا الحب ،
وأغلقت بابها دون ذلك الهيام ، وحطمت ذلك التمثال بيديها ،
كل ذلك في سبيل أمل موهوم وأمنية كاذبة . . . إن لورا
لم تعمل شيئاً ، وإن محموداً لم يعمل شيئاً ، وهي وحدها
التي نفسها تلوم . هي وحدها التي دمرت سعادتها ، وهي
وحدها التي انتزعت قلبها من صدرها وقذفت به في التراب .
رفعت زبيدة رأسها بعد لحظات وقالت : مبارك يا محمود .
ثم أخذت تخوض في حديث آخر فقالت : إننا جئنا إلى
القاهرة وأحببنا أن نراك فأرشدنا ابن عمك حسين إلى منزلك .
وهنا قالت نفيسة : إن زوجها الجنرال لا يقبل زيارة أحد
من أقاربها . فقال محمود : إن كل سعادتنا أن نعلم أن
زبيدة هائلة سعيدة . فقالت زبيدة : أما السعادة والهناء
فبيني وبينهما سدود وأسوار ، ولكني راضية بالقضاء
خيره وشره . وقد علمتني الأيام ألا أجرؤ على تغيير القدر ،
وألا أفسد حياتي بآرائى وآمالى . وهنا تنهدت نفيسة طويلاً
وقالت : هل عثرت يا محمود على مكان خالك ؟ فأطرق
مليئاً وانساب الدمع من عينيه غزيراً وقال : أعظم الله أجرك
فيه يا خالتي ، فقد نال شرف الشهادة ، ومات في ميدان

الجهاد شجاعاً كريماً . وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً .
وما كاد يتم قوله حتى ارتفع البكاء والعيويل . وكادت نفيسة
يغمى عليها من هول الخبر . وأخذت زبيدة تبكى وتعدد
مآثر أبيها ونبله وشرفه . وتصيح كما يصيح الهاذى المحموم :
لقد قتلته ! ولما هدأت الأصوات قليلاً رفعت نفيسة رأسها
وقالت : هلم يا زبيدة . إن المرء لا يستطيع أن يمحو ما كتبه
القدر . ثم ودعتا لورا ومحموداً وانصرفتا .

١٤

في اليوم الثاني والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ استيقظت
القاهرة على موكب حافل ، أراد به كليبر أن يظهر عظمة
ملكه وقوة بطشه ، وأن يحتفل بالنصر المؤزر الحاسم .
فخرج من داره بالأزبكية في جمع خضم من مشاته
وفرسانه ، وكان الجنرال يمتطي جواداً أشهب ، وقد بدا
في وجهه العبوس والأنفة ، وامتألت خياشيمه عظمة واعتداداً .
في هذا اليوم نفسه - والجنرال في قمة مجده - كان يجلس
بفناء المسجد الأقصى بمدينة القدس ، شاب في الرابعة
والعشرين ، نحيل الجسم شاحب اللون ، حائر العينين
مستطيل الوجه ، أنافي ، رث الثياب ، يكثر من هز رأسه

في حزن واضطراب . كان طالب علم ، وكان فقير الحال ،
 وبينما كانت الحواطر تتوالت إلى نفسه ، رمى ببصره فرأى
 طائفة من الجنود العثمانية تتجه إلى مسجد الصخرة ، وقد
 نهكهم التعب ، وأكلهم السغب ، وتمزقت ثيابهم وجللها الغبار ،
 فهاله أن يرى جنود الإسلام على تلك الحال ، وحز في قلبه
 أن يتول أمر حماة الدين إلى ذلك الخور والصغار . رأى تلك
 الطائفة من الجنود فقام يسعى إليهم ، وما كاد يقترب منهم
 قليلا حتى رأى بينهم ضابطاً كان يعرفه بحلب ، هو أحمد أغا .
 فحياه في شوق وحفاوة ، ثم قال : يبدو عليك وعلى أصحابك
 يا سيدي أنكم قدمتم من سفر طويل .

— لم يكن السفر طويلا يا سليمان ، ولكن . . .

— وماذا وراء (لكن) هذه ؟

— وراءها الحزى والهزيمة .

فبادره سليمان سائلا : كيف ؟ !

— هلم يا صاحبي نجلس إلى جانب هذا الجدار ،

فقد يطول بنا الحديث ، وبعد أن جلسا قال أحمد أغا :

خبرني أولا عن شأنك أنت ، فإن آخر عهدي بك كان

بمدينة حلب منذ أربع سنين .

— نعم كان ذلك منذ أربع سنين ، ولن أنسى كريم

عنايتك بأبي وحدثك عليه ، ومنذ ذلك الحين نزع نفسي

إلى أن أكون جندياً، وكان الجهاد في سبيل الله أقصى ما تهفو إليه
 آمالي ، فظالما أيقظتني من غفوتي أصوات الجماهير ، وهي
 تصيح : الله أكبر ! الله أكبر ! لقد أنقذ سليمان الحلبي
 الإسلام من أعدائه ، وروى سيفه من دمائهم ! فكنت
 إذا دهمتني هذه النوبة ، أجلس في ظلام الليل الدامس
 حزيناً باكياً، أتلفت فلا أجد سيفاً ولا رمحاً ، وأتسمع فلا
 أسمع إلا سكون الليل وهدوئه . ثم أحاول أن أهز ذراعي لأستأنس
 بما قد يكون بهما من قوة على الجهاد ، فلا أهز إلا ذراعين
 ناحلتين ، لا تقويان على قتل ذبابة ، فيزيد بكائي ويطول
 أنيبي ، حتى إذا زاد ما بي ، وطال الأمر على ، ونخفت
 أن أوصم بالحنون ، ذهبت إلى إبراهيم باشا وإلى حلب . . .
 - ويل له من ظالم غاشم ! !

- دعك من هذا فلسنا الآن بصدد الحديث عن الناس .

ذهبت إليه في قصره ، فسخرت في نفسي مما رأيت
 من جنود وأعوان ، وخدم وخصيان ، وأبهة كاذبة
 وعظمة جوفاء ، يعرف هؤلاء الأتراك كيف يصطنعونها
 بإطالة الشوارب وكثرة ما ينتطقون به من خناجر ، ويتكبرونه
 من بنادق . وبذلك الصوت الحشن المفزع ، الذي يظنون
 أنه يغني عن جرأة القلوب وصدق العزائم ، فلما حاولت
 أن أجاوز الباب ، توثب على الحراس والأجناد من كل

مكان في عجب ودهشة ، وركض الفرسان من مواقفهم ، وأقسم لوأنهم دعوا ليوم كريمة ، ما كانت لهم هذه الوثبات ولا تلك الحماسة المتأججة . نظروا إلى مشدوهين ، كيف جرؤت؟! وكيف يصح لفتى فقير ممزق الثياب من أبناء العرب ، أن يتحدى ذلك الملك الذي لا ينال ، ويطأ بقدميه فناء تلك العظمة السماء؟! ؟ وقفت أنظر في وجوههم ، وفي لمحات وجهي شيء غير قليل من السخرية ، فصاح بي كبيرهم قائلاً في اشمئزاز : ماذا تبغى يا عربى ؟ ؛ قلت : أريد أن أقابل الوالى . فابتسم في صلف وقال : أنت تقابل الوالى ؟ ! ألا تدري أن ذلك ممنوع ؟ قلت : الذى أعرفه أنه الوالى ، وأنه يجب عليه أن يقابل من هم في ولايته . قال : وماذا تريد منه ؟ قلت : ذلك ما أوتر أن أحدثه به بنفسى . وكان الباشا حينما سمع ضجيج الحراس أطل من نافذة غرفته ، وسأل عن الخبر ، فلما علم بأمرى دعانى إليه ، وقابلنى عابساً ، ثم قال بصوت يشبه الزجر : ماذا تريد يا فتى ؟ ! قلت : أريد أن ألحق بالجندي لأجاهد في سبيل الله ، فضحك حتى سقطت عمامته ، وجلس بعد أن كان قائماً . ولما التقط أنفاسه ، قال في رفق يتعمده الناس عند مخاطبة المجانين : تريد أن تجاهد في سبيل الله ؟ ! آه . . آه . . قلت لى . . هذا شيء عظيم !

أنت رجل لو تفخت فيه الآن نفخة لطار إلى الغرفة التي أمامي . من الذي وضع في رأسك فكرة الجهاد هذه ؟ ! الجهاد يا بني متزلة لا ينال شرفها إلا الرجل القوي الضخم ، ذو المتن الأزل والساعد المقتول ، ولو فتحنا باب الجهاد لأمثالك لأنشأنا جيشاً جراراً للهزيمة والعار .

قال كل ذلك وأنا واجم مفكر ، وقد تطلعت لأجد حولي خنجراً أغمدته في صدره لأستريح من زهوه وعتوه ، فلم أجد . ثم رفعت رأسي إليه في كبر واعتداد وقلت : هون عليك يا سيدي . إن ميدان الجهاد أوسع من ميدان القتال . - وماذا فعلت بعد ذلك ؟

- خرجت من عنده ، وعزمت وأنا في الطريق على أن أتجرد لدراسة عاوم التصوف والتاريخ ، لأستبين منها خير سبيل للجهاد . فطلبت من أبي أن يعينني على الدراسة بالجامع الأزهر ، فزودني بما أردت وذهبت إلى مصر ، وقضيت بالأزهر ثلاث سنوات ، قرأت فيها على كثير من علمائه . ولما دخل الفرنسيون مصر ، ورأيهم يصبون على الأزهر حاصباً من قذائفهم ، تحركت في نفسي عوامل الانتقام وعزمت على أن أقتل كبيرهم « بونا بارت » ولكني جيت ، واجتذب الشيطان السكين من يميني فلم أجد لي عزماً ، عندئذ غادرت مصر وأقمت بالقدس .

والآن حدثني عن نفسك ، فقد علمت طوية أمرى .
 فزفر أحمد أغا وقال : إن حديثي لن يطول وإن كان
 ألى طويلا : قمنا من غزة لغزو الفرنسيين بمصر بقيادة
 الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء ، وحاصرنا قلعة (العريش)
 حتى استولينا عليها بعد جهد ، وعندئذ شرع الفرنسيون
 يفاوضوننا في الصلح على أن يتزحوا عن البلاد . وسمعت
 من بعض الضباط أن المعاهدة تمت وأنها وقع عليها منا
 ومنهم ، ولكني علمت بعد ذلك أن الإنجليز لم يرضوا
 عن هذه المعاهدة ، وأن سارى عسكر كليبر استأنف
 القتال . فالتقى بجيشنا عند عين شمس فانهار الجيش أمامه
 . كما ينهار الطلل البالى ، وتقهقرنا إلى بلبس ، ثم إلى الصالحية ،
 وتفرق جنودنا بدداً ، وهاموا على وجوههم في الصحراء
 أذلاء مهزوين حتى وصلت اليوم مع طائفة منهم إلى القدس .
 ثم جلس على ركبتيه وقال : سليمان ! ألا تستطيع أن
 تعمل عملاً عجز عنه الجيش ؟ !

— هذه كانت آمالي منذ سنوات ، ولكن النفس الإنسانية
 تتبدل باليأس وتشبث العزائم .

— إن نفسك فوق النفوس ، وهى أبعد من أن تنالها يد
 اليأس . إن الإسلام يدعوك لنصرته ، وإذا ضاعت مصر ضاع
 الحجاز وانقطع السبيل إلى بيت الله ، وضريح رسول الله .

— آه يا أحمد !! إن مما يؤلم حقاً أن تريد فلا تقدر .
وهنا خاف أحمد أن تفلت الفريسة من يديه ، فاتخذ
منهجاً آخر في الإغراء وقال : أعلك تخاف الموت ؟ !
ما كنت أظن أن للخوف عليك سلطاناً . ما هذا ؟ ! أين تلك
النفس الوثابة ، وأين التهافت على الجهاد ، وأين تلك النفحات
الربانية ؟ ! لقد عاد الضياء ظلاماً ، والغزم أوهاماً ،
والسيف الصارم كهاماً ! ! وأصبحت مخلوقاً أرضياً حقيراً ،
بعد أن كنت تسبح في سماء كلها إشراق ونور .

فتألفت عينا سليمان ، وتجمعت أسارير وجهه وتقبضت
شفتاه شأن العازم المصمم وقال : وماذا أعمل يا أحمد ؟ ؟
— تأخذ هذا الكيس وفيه مائة محبوب ذهباً ، وتذهب

اليوم إلى حاكم غزة ، ليدلل لك سبيل السفر إلى مصر .
ثم أخرج خنجره من منطقتة وقال : وإذا بلغت مصر
فأغمد هذا الخنجر في صدر كليبر قائد الجيش الفرنسى .
فقدف سليمان بالكيس في وجه صاحبه ، وقال وهو ينتفض
إن المجاهد في سبيل الله لا يحتاج إلى مال . حسبي هذا
الخنجر وسأهز به الدنيا هزاً ، وسأترك به فيها دويماً .

سافر سليمان الحلبي إلى غزة ، وبقى بها أياماً ينتظر
قيام قافلة للتجارة تقصد إلى مصر ، حتى إذا قامت صبحها ،
فبلغ القاهرة بعد ستة أيام . وكان ذلك في اليوم الرابع

عشر من مايو ، وكان يعرف القاهرة من قبل ، فحمل
 خرجه واتجه صوب الأزهر ليقم برواق الشاميين .
 ولما ضاق بالأمر صدره أفشى بعض سره إلى بعض
 الطلبة من أصدقائه فسخروا منه ، وهزءوا به ، ورموه بالجنون .
 فزاد ذلك من غيظه وحفزه على التصميم . فخرج في صباح
 اليوم الثالث عشر من شهر يونية إلى الجيزة ، يمشى مطرق الرأس
 مذعوراً ، كما يمشى الكلب المسعور ، باحثاً عن كليبر في كل مكان
 كما يبحث الصائد عن طريدته . فعلم بعد طول التسأل
 من نواتي سفينته ، أنه يتمشى في كل مساء في حديقة
 قصره بالأزبكية . فرجع إلى القاهرة وكان قد أظله الليل ،
 فحاول أن يصل إلى حديقة القصر فلم يستطع ، ففضى
 ليلته في مسجد قريب . ولما أصبح تتبع خطوات الجنرال
 وسار في إثره إلى « الروضة » ، ثم عاد خلفه إلى القاهرة ،
 واستطاع التسلل إلى الحديقة فكن فيها خلف ساقية . وأخذ يتلو
 آيات من القرآن في الجهاد وفي ثواب المجاهدين ، وما كاد
 يفتح عينيه حتى دخل كليبر - ومسيو « بروتان » المهندس
 - الحديقة ، فنهض سليمان واقرب من الجنرال في ذل متصنع ،
 فظنه مستجدياً فلم يأبه له ، ولكن سليمان وثب عليه كما
 يشب النمر الجائع ، وطعنه بنخجره طعنة قاتلة فسقط مضرجاً
 بدمائه . وهم مسيو بروتان أن يتعقب القاتل ، فلما أمسك

به طعنه سليمان ست طعنات ، خر بعدها لليدين والتم ، ثم عاد إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليقتضى على آخر مسكة من حياته ، ولم تحدثه نفسه بالفرار . ولكن غريزة حب البقاء دفعته إلى جدار في الحديقة فاختمى عنده ، وجاء الحراس فرأوا قائدهم وقد أسلم الروح ، فهالهم الأمر ، وأقسموا على الانتقام من مصر وأهلها ، وأن يدكوا أركانها دكاً . ونفخوا في أبواقهم ليجمعوا شتات الجنود المنتشرين بالقاهرة ، واهتزت أرجاء المدينة وزلزلت للحادث الجلال .

١٥

كانت القاهرة يلفها غبش الظلام ، حينما انطلق جنود الفرنسيين في أنحائها غاضبين مهتدين بمحو القاهرة من صحيفة الوجود . وقد تسابقوا إلى القلاع والتلال ، وصوبوا مدافعهم نحو المدينة المسكينة ، واعتزموا أن يجعلوها نسفاً ، وألا يبقوا بها نفساً . ووصل الخبر المشؤم إلى السكان فهرعوا إلى ديارهم ليفروا من الموت إلى الموت ، وعلا الضجيج ، وصاح النساء من نوافذ المنازل مولولات ناعيات ، وبكى الأطفال مفزوعين لهذا الهول العظيم . وكان نيكلسون ومحمود بقهوة بنخطة سيدنا الحسين ،

فلما وصل إليهما الخبر بهتا وأخذهما أول الأمر ما يشبه
الذهول ، ثم قال نيكلسون :

— من يكون القاتل يا ترى ؟

— يكون من يكون ، فلن تفلت مصر من أكبر نكبة
في تاريخها . وتكون النازلة أعظم إذا لم يعثروا على القاتل .

— ويل للقاهرة ثم ويل لها ! لقد أصبحت منذ دخل

الفرنسيون غرضاً لا تخطئه السهام . هلم بنا إلى الدار فقد
تركنا بها لورا وحيدة ، وأخاف أن يمسها سوء .

وبينما هما في الطريق قابلهما السيد أحمد المحروقي ، وصاح

بهما : لقد وجدوا القاتل . فسأله نيكلسون قائلاً : وأين وجدوه ؟

— الحق أنه هو الذي أوجد نفسه ، فإنه لم يحاول

الفرار ، ولم يغادر حديقة القصر . وقد علمت أنه طالب

حلبى ، والفرنسيون يعتقدون أن وراء الأكمة ما وراءها .

فقال محمود : غداً يتبلج الصبح لدى عينين ، إن القاهرة

في هذه الليلة لن تنام ، وكيف ينام من تنصب له أشراك

الحمام ؟ !

ثم انطلقا حتى بلغا دارهما ، فوجدا لورا لدى الباب

والهة حزينة ، حتى إذا رأت محموداً سقطت بين

ذراعيه ، وأخذت تبكى وتضحك في آن . ثم اتجهت

إلى أبيها وقالت : لقد قتلتى طول انتظاركما في هذه الليلة

الليلاء ، وقد أصمت صفارات الفرنسيين أذنى وهم يجوسون
 خلال الطرق فى شبه جنون محموم . هل قتل كليبر حقاً ؟
 فقال محمود : نعم قتل حقاً ، قتله شاب حلبى فدائى
 فيما يظهر ، وإنى أمقت الوسيلة وإن ارتحت إلى الغاية .
 - حسناً يا محمود ، وإن كان بعض الناس يرى أن الغاية
 تبرئ الوسيلة .

فقال نيكلسون : هذا رأى فائل شديد الخطر ، لو
 أخذ به لهدمت الأخلاق جميعاً ، ولتحول الناس إلى ذئاب
 وثعالب . إن الغدر ليس من الشجاعة فى شىء ، وإن
 من الرجولة أن يجبه الرجل خصمه فى نزال شريف .
 فقالت اورا : هذا صحيح يا أبى ، ولكنى ، أظن أن
 الأمر يختلف إذا اختلف الحصان فى القوة .

- هونى عليك يا بنيتى ، ودعينا - كما يقول الإنجليز -

نتفق على أن نختلف . اتظنين أن الفرنسيين سيصبون نقتهم
 على البلد ؟

- ما أظن بعد أن قبض على القاتل وتبين أنه حلبى .

وقال محمود : أخشى أن يجرحهم البحث إلى تتبع المتآمرين

الذين كانوا يغشون بيت الشيخ السادات ، وحينئذ فعلى

وعلى نيكلسون وعلى السيد عمر مكرم ، والسيد المحروقى

السلام . فقال نيكلسون : لا يا محمود إننا كنا نتآمر على

إخراجهم من البلد لا على قتلهم غيلة . الذى أظنه أن موجة العذاب ستزحف على الأزهر ، لأن القاتل كان أحد طلابه . ثم دلفوا إلى مضاجعهم ، والقاهرة ساهدة ناصبة . ومر يومان تم فيهما تحقيق الحادث الجلل ، وحكم على سليمان الحلبي بقطع يمينه التى صوبت الخنجر إلى صدر القائد العظيم ، وبصلبه فوق مخزق وترك جسمه لجوارح الطير تتخطفه ، وبقتل طلبة أربعة كان أفضى إليهم بسره . ثم احتفل الفرنسيون بجنائز المقتول احتفالاً ضخماً .

وحيثما قتل كليبر ، أطل الجنرال مينو برأسه من الغمرة التى كان فيها ، ووثب إلى قيادة الجيوش الفرنسية ، وأصبح حاكم مصر المطلق .

أما زبيدة : فحيثما وصل إليها الخبر ، وعلمت أن زوجها أصبح حاكم البلاد ، وأنها أصبحت ملكة مصر كما زينت لها « رابحة » العرافة منذ ستين - أخذتها نوبة مبهمة مختلطة ، يمتزج فيها السرور بالحزن ، والرضا بالسخط ، والتصديق بالسخرية والازدراء . وأخذت تناجى نفسها فى أسى ممض قاتل : أهذه غاية المطاف ؟ ! وتلك هى الأمنية الحداءة التى أطفأت بها سراج حياتى ؟ ! ولذلك الاسم الأجوف ضحيت بحب محمود الظاهر النقى ؟ ! ذلك الحب الملائكى الذى لو مس الهاجرة لعادت نسياً ، أو امتزج بالماء لكان

تسنيا ؟ ! أنا ملكة مصر ؟ ولن أستطيع أن أخرج من داري ،
بالضحك القدر وباللسخرية وباللعار !

وتوالت الأيام ، وأظهر كل يوم منها تعثر « مينو »
في سياسته فقد عبث بقواد الجيش كما شاء حقه ، فعزل
منهم من عزل لسخائم في نفسه . ورفع من رفع من غير
حق . فدعر القواد لهذه الفوضى وسخط الجنود ، وتبددت
وحدة الجيش . وألف ديواناً جديداً للأحكام ، جعل بين
أعضائه صهره العزيز السيد عليا الحمامي . ثم اتجه إلى أهل
مصر فأرهبهم بالضرائب القادحة . وأكثر من المصادرة
وسجن الأبرياء وهدم الدور ، حتى محيت أحياء بأكملها ،
وزاد في سخط الجيش أن زبيدة وضعت له غلاماً فسماه :
سليمان ، شماته في كليبر ، وتنويهاً باسم قاتله .

وفي مارس سنة ١٨٠١ ذاعت بين الناس ذائعة تلقفتها
الأفواه ورددتها الجماع ، وتنفس الناس لها الصعداء ،
وكان نيكلسون ومحمود العسال يزوران السيد المحروقي في داره ،
فوجدوا عنده الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، فسأله نيكلسون :
ما هذا الخبر الغريب يا مولانا ؟

— لم يصبح الخبر غريباً يا سيدي السوسى ، فقد وصلت
عمارة إنجليزية إلى أبي قير ، فهزمت الفرنسيين ونزات
إلى البر ، ودارت معركة بالإسكندرية بالمكان الذي يدعونه

بقصر القياصرة ، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضاً . وسافر
« مينو » إلى الإسكندرية . لتمّ الخزيمة .

— أوافق أنت من هزيمة الفرنسيين .

— كما أثنى بالعدل الإلهي . إن الفرنسيين ليسوا كما كانوا

أيام بونابرت . وقد قضى مينو على البقية الباقية من حماسهم
واجتماع كلمتهم . وراح يبدد جيشه في كل أنحاء مصر .

فكيف يستطيع بفتنة قليلة أن يلاقي جيشاً عظيماً ؟ !

— ما رأى سيدنا الشيخ في الإنجليز ؟

— أخاف أن تكون لهم نية في مصر ، وأنهم يركبون

الترك مطية لأغراضهم .

— إن الإنجليز قوم شرفاء .

— وما شأن هذا بالشرف ؟ إن للكون نظاماً ، والفوز

دائماً للقوى .

وانفض المجلس وتواتت الإشاعات في كل يوم ، ورقص

عوام القاهرة وطاربوا لكل خبر جديد ، وأنشد الصبيان

الأناشيد في المكاتب والطرق ، وخرج شذاذ « الحسينية »

و « العطوف » و « الرديلة » في جموعهم يتحدون الفرنسيين ،

ولم تمض أيام حتى وثب جيش الترك والإنجليز على أرباض

القاهرة ، فدعر الجنرال « بليار » نائب « مينو » وعقد

مع المغيرين معاهدة من شروطها : أن يغادر الجيش الفرنسي

بلاد مصر في أقرب ما يكفى من الزمان لرحيله .
 أما مينو فاضطرب أدره بالإسكندرية وركب رأسه ،
 وقذف بجنوده في غير حزم إلى موت محتوم حتى إذا سقط
 في يده . ورأى أنه ضل الجادة وتقطعت به وسائل الدفاع ،
 سلم سيفه مهزوماً ، وعاهد الترك والإنجليز في السادس
 والعشرين من أغسطس سنة ١٨٠١ على مغادرة مصر ،
 فأقيمت معالم الأفراح في كل مكان . وأشرقت الشمس
 بنور ربها فبددت غياهب الأحزان ، ونظر الفرنسيون إلى
 الجنوب وهم مبحرون من الإسكندرية ، بعد أن تمزقت
 آمالهم ، فإذا أبو الهول لا يزال يتسم ! !

كانت زبيدة ذات صباح في غرفتها ، وهي في هم
 ناصب وحيرة قاتلة : أتفرح لجللاء الغاصبين عن بلادها ،
 أم تحزن لجلالها عن بلادها ؟ ولماذا تفارق أهلها وديارها
 إلى قوم هم عنها غرباء ، وهي فيهم دخيلة ؟ ألهذا الزواج
 الذى عبث بنسبتها فأصبحت لا شرقية ولا غربية ،
 ونقلها من بيتها التى فيها نشأت ، وفي جوها نمت ، وفي
 ظلال آمالها تفيأت - إلى بيئة أعجمية أصبحت فيها غربية

الوجه واليد واللسان . لماذا تفارق أرضها وديارها ؟ إن زواجها كان خطرة من وسواس مينو ذى الخيال الحصبب والعقل العجيب ، ولبانة أراد قضاءها فى مصر .

وبينما هى تغوص وتطفو فى هذا الخضم المائج من الأخيلة والأفكار ، إذ صاح ابنها سليمان وكان نائماً ، فهزعت إليه حدبة مشفقة مدللة ، وأخذت تناغيه وتناجيه بألفاظ عذبة ، تعرف الأمومة العطوف كيف تصوغها ، ثم شرعت تحدثه كأنما تحدث فتى يافعاً وتقول : ستبقى معى هنا يا فتاى العزيز إذا ذهب أبوك إلى فرنسا ، سنعيش هنا يا سليمان سعيدين ، وستنال من حبي أضعاف أضعاف ما كنت تناله من حب أبىك . إن فى قلبى حباً قديماً مكظوماً كتمته وأحكمت سده ، وقد كنت فى يوم من الأيام أريد أن أسعد به كما تسعد الفتيات ، فجاء أبوك فى طريقى فسددته عنه وعن الناس جميعاً ، فخذته كله يا سليمان ، فإنه حب نقى كماء الغمام ، طاهر كصحائف الأبرار ، عظيم كموج البحر . إنك إن تذوقته أغناك عن حب أبىك ، إنه حب فتاة والهة ضاع أملها ، وأم رءوم تحيا مرة أخرى فى وحيدها . وهنا ضحك الطفل - وكان فى شهره السابع - وحرك يديه ، فقبلته وقالت : أتضحك من أمك يا سليمان ؟ ! اضحك منها كما تشاء فقد ضحك منها أبوك ، وضحك منها الناس جميعاً ، ولكنك ستبقى لى

على كل حال . ربحانة حياتى وقرة عيني . وإذا طلبك أبوك فقل له فى رجولة وشهامة : سأبقى مع أمى فاذهب أنت حيث شئت ، إن أبناء النيل لا يبغون بمائه الظاهر بديلا ! أنت مصرى يا سليمان . أنت مصرى بلا شك لأنى مصرية ، وأنت فلذة منى ، فدع أباك الفرنسى يذهب إلى بلاده كما يريد ، وتعال نعد إلى دارنا فى رشيد ونجمع حظام تلك الذكريات الحلوة ، التى عبثت بها العواصف وبددتها الخطوب .

ثم طافت بوجهها جهومة قائمة ، وقالت : وإذا حتم أبوك أن تذهب معه إلى فرنسا فإذا تفعل ؟ أتذهب معه ؟ إنك إن فعلت قتلت أمك يا سليمان . إنى أوثر أن تنزع روحى من جسمى على أن تنزع أنت من يدى . وهنا طرق الباب خادمتها « سرور » وكان معه « روفائيل » المترجم جاء يحمل رسالة من مينو قدم بها جندى من الإسكندرية ، فأذنت لها بالدخول . وأخذ روفائيل يترجم الرسالة وكانت موجزة جافة يأمر فيها زبيدة بالرحيل العاجل إلى رشيد ، لتدرك السفن التى ستقل جيش الجنرال « بليار » إلى فرنسا ، ويهددها فى آخر رسالته بأنها إن أبت الرحيل ، فعليها أن تسلم ولدها إلى مسيو « إستيف » مدير الشؤون المالية ، ليحمله إلى أبيه بالإسكندرية . وما كادت زبيدة تسمع الرسالة ، حتى

جن جنونها ، وصاحت في وجه روفائيل :
 اذهب وقل لسيدك : إن مخلوقاً في الأرض لن يستطيع
 أن يأخذ مني ولدى ، ثم قل لسيدك : إنه لم يعد حاكماً على
 مصر حتى يتبع معي أساليبه التي قضت عليه وعلى ملكه .
 ثم قل له مرة ثالثة : إن زبيدة مصرية ، وإن ابنها مصرى ،
 رغم أنف القوانين التي تأنقتم في وضعها .
 وحينما سمعت أمها صياحها أقبلت مذعورة ، وكانت
 في غرفة بعيدة مع ابنها الحمأى ، فلما علمت الخبر انفجرت
 بالبكاء ، ووقف إلى جانبها « سرور » وهو يدافع الدمع
 فلا يستطيع . . وكان المترجم « روفائيل » قد خرج بعد
 أداء رسالته مسرعاً ، فلاحق بالمسيو « إستيف » في دار
 ديوان الأحكام وأخبره الخبر ، فأسرع إستيف إلى قصر
 مينو وطلب مقابلة زبيدة ، وكان ينتفض من الغضب ،
 فلما قابلها قال لها في حزم وتصميم : إن زواجها بالجنرال
 لم يكن لعبة لاعب أو سخرية ساخر ، وإنما هو زواج
 شرعى له كل مطالب الزواج الشرعى ونتائجه . أما أن
 الجنرال لم يعد حاكماً لمصر ، فتلك مسألة ليس للنساء أن
 يخضن فيها ، ولكن الذى يعلمه ، والذى يجب على السيدة
 أن تعلمه ، أن من مطالب الجنرال مينو الأولى عند الاتفاق
 على نزوح الفرنسيين عن مصر - أن تتخذ الوسائل الآمنة

لسفر زوجه وابنه إلى فرنسا . فإذا كان مينو حاكم مصر
 أو لم يكن ، فإن الترك والإنجليز سينفذون هذا المطلب ،
 رضيت السيدة أم أبت . وإذا بلغت بالسيدة رقة العاطفة
 بحيث لا تستطيع أن تغادر وطنها ، فإننا لن نجرؤ على مس
 تلك العاطفة النبيلة ، ولكننا نكتفى بحمل ابن الجنرال إليه
 لأنه فرنسي السلالة ، بمقتضى المادة الحادية عشرة من عقد
 الاتفاق المسجل بمحكمة رشيد .

سمعت زبيدة هذا الحديث أو هذا التهديد فصعقت ،
 وتطلعت إلى مسيو إستيف في استعطاف يفت الصخر ،
 فلم تجد في وجهه إلا عبوساً وبيساً ، ثم نهدت وقالت :
 ألا ينتظر الجنرال سنة حتى ينمو الطفل قليلاً ويتحمل
 مشاق السفر ؟ فقال إستيف في إيجاز : السفر غداً .

وهنا هزت زبيدة رأسها وقالت في شمم اليائس : سأسافر
 بالطفل غداً ، ويفعل الله ما يشاء . ثم كففت دموعها
 وقالت لسرور : أعد كل شيء يا سرور . وهمت أمها
 بالبكاء فصاحت بها : ليس هذا وقت البكاء يا أماه ،
 إنما هو وقت الصبر والتسليم لأحكام القدر .

فأعد سرور كل شيء للرحيل ، وحتمت والدة زبيدة
 عليه أن يسافر مع سيدته إلى فرنسا ، وذاع خبر سفر
 زبيدة بين أهلها بالقاهرة ، فاجتمع في الصباح بالقصر :

السيد المحروقي ، وزوجته أمينة ، وابنه وابنته ، ومحمود العسال
ونيكلسون ، ولورا . وكانت قبرة من الحزن تعلو وجوههم كأنهم
جاءوا لتشييع جنازة ، ونزلت زبيدة من السلم وحوطها أمها
وأخوها وسرور ، وخادمة تحمل ابنها سليمان ، فسلمت
على مودعيها واحداً واحداً في صمت وتجلد . ولما جاءت
للسلام على ابن خالتها محمود لم تملك إلا أن تعانقه ، وتطبع
على جبينه قبلة صامته . ولما همت لتركب المحفة إلى
ساحل بولاق ، اتجهت نفيسة إلى سرور وهي تحمل
في يدها كيساً ثقيلاً وقالت : هذا الكيس يا سرور به
ألف محبوب ، فاحفظه معك ولا تنفق منه شيئاً ، فإذا
وقعت سيدتك زبيدة في ضائقة فأنفق منه ما تشاء لتخليصها .
وركبت زبيدة المحفة بين بكاء الباكين وعويل المعولين ،
واختفت عن الأنظار كما يختفي حجر صغير يقذف به
في بحر خضم .

وسار محمود ولورا مع خالته نفيسة حتى بلغا دارهما ،
وحيثما قالت لورا : لم يعد لنا بقاء بالقاهرة يا محمود .

— إن سرورنا بخروج الفرنسيين ضيع نشوته حزنا على
زبيدة ، وقد أقمنا بالقاهرة لمناجزة الغاصبين ، لذلك أرى ما ترين .
فأسرع نيكلسون قائلاً : لنسافر غداً إذاً مع السيدة
نفيسة . ولما عقد الاتفاق على السفر ، خرج محمود إلى ابن

عمه حسين فأخبره بما عزم عليه ، ووجد عنده سعداً الشباسي المراكبي ، فعلم منه أنه سيسافر إلى رشيد بعد يوهين . فتركهما محمود وأخذ في الاستعداد للسفر ، حتى إذا جاء اليوم الموعود ركبا في السفينة إلى رشيد .

١٧

وصلت السفينة إلى رشيد بعد ستة أيام ، والتقى محمود بأمه بعد طول الغيبة . فرآها لا تزال ملازمة فراثها ، ولكنها انتعشت لرؤيته ودب فيها ديب الحياة . ثم قدم إليها اورا ، فقبلت يدها في أدب جم ، وأخذت السيدة زينب تحدد النظر إليها وتصوبه ثم صاحت : هذه ابنتنا اورا ؟ أين كنت يا بنيتي كل هذه المدة ، أيجمل بك أن تتركى خالتك المريضة دون أن تروحي عنها بزيارة قصيرة .

فقال محمود : إنها كانت في القاهرة يا أمى منذ دخول الفرنسيين مصر ، وقد كانت ترعى ابنك محموداً ، وتمرضه وهو جريح ، حتى عاد إليك رجلاً قوياً يحملك هكذا ، ويقبلك هكذا . ثم حملها وأخذ يغمر وجهها ويديها بالقبل وهي جدلى فرحة . ثم قالت وقد التقطت أنفاسها : إنك لا تزال غلاماً شقيماً كعهدي بك . وأين أبو لورا ؟

— ذهب إلى منزله الذى كان يسكنه «إلياس فخر»

المترجم ، لأنه رحل مع الفرنسيين فأتجهت إلى لورا وقالت :

لقد كان منزلك جميلا يا لورا ، كنت كلما زرت مقام

سيدى الإدفينى عرجت عليه لأجلس بجانب إحدى نوافذه

الشمالية ، لأتمتع بشميم أزهار الحدائق حوله . فأسرع محمود

وقال : إنه لم يعد منزل لورا يا أمى .

— ألم تقل : إن المترجم رحل عنه ، وإن الحاجة نيكلسون

عاد إليه ! . .

— نعم . ولكن لورا يحول الآن بينها وبين سكناه حائل عظيم .

— حائل عظيم ! ! ما هو ؟ فابتسم نحو لورا وقال :

— الشرع الشريف والحب الشريف .

فقالت أمه : أنا لا أفهم هذه الألغاز !

— وهذا بعض ما تستحقين ، فظالما ربكت عقلى

بالأحاجى «الفوازير» وأنا صغير لا قبل لعقلى بها .

— دع هذا يا محمود وخبرنى جليلة الخبر .

— إن لورا تزوجت .

— ألف مبارك يا لورا . بمن ؟ فقال محمود :

— بمن لا يحب فى الدنيا إلا امرأتين : هى . . وامرأة

أخرى تجلس الآن فى سريرها .

— رجعنا إلى الألغاز . بمن بحقك ؟ ؟

— بابنك محمود .

فاتجهت زينب إلى لورا ومدت إليها ذراعيها ، وأخذت
تقبلها بين الضحك وانهمار الدموع ، ثم قالت وهي تداعبها :
عرفت سر تكرار زيارتك لحالتك حينما كنت برشيد .
ثم ضحكت وقالت : هؤلاء البنات لا يغلبهن غالب حينما
يردن ، وقد خلفت لمن أمهن حواء تلك الشبكة المحكمة
الأطراف التي تصيدت بها أباهن آدم . ألف مبارك
يالورا . من مثلي الآن في رشيد ؟ لى ولد وبنت صورهما الله
من جمال وحسب وخلق كريم ! الآن لا أحب أن أموت !
ثم أمرت الخدم أن يعدوا لها غرفاً خاصة بهما ، وبعد
قليل هجس بنفسها هاجس أليم انقبض له وجهها فقالت :
لقد علمت بخاتمة نكبة بنت خالتك يا محمود ، إنها لمصيبة ،
أخف منها الموت . وكيف حال أختي نفيسة ؟

— جاءت معنا من القاهرة وذهبت إلى دارها .

— مسكينة !! لن تجد بدارها أنيساً إلا إذا اتنس البائس بما

يؤول من الذكريات !! مسكينة مات زوجها الشهم الذي لم
تشرق شمس رشيد على مثله ، وضاعت بنتها غنيمة للفرنسيين ،
حتى كأنهم لم ينزلوا مصر إلا لاخطافها ، وبقى لها . . ماذا
بقى لها ؟ ! الشكل والجزع وابنها على الحمamy .

— آه يا أماه !! إن رزيئتنا في زبيدة فوق الاحتمال .

فأرسلت أمه نظرة خاطفة إلى لورا وقالت : ذلك قضاء الله يا بنى . من كان يظن أن الشرقى يتزوج غربية ، والغربى يتزوج شرقية ! ! آمنت بالله ، آمنت بالقدر خيره وشره ! ! وفى هذا اليوم غير نيكلسون زيه فارتدى ملبسه الإفرنجية ، وطلق اسم الحاج محمد السوسى إلى غير عودة ، وقابل شريكه « أورلندو » فضبط معه حسابه مدة غيبته ، وعاد إلى متجره بشارع البحر كما كان ، مغتبطاً مسروراً برحيل الفرنسيين ، مزهواً فخوراً بأن قومه هم الذين أجلوهم عن البلاد .

ومرت سنوات ست على محمود حتى أظلمت سنة ١٨٠٧ وهو هانى سعيد بزوجته ، وقد زاد بها تعلقاً وزادت به حباً . وفى خلال هذه السنوات اضطربت الأحوال بمصر ، واشتد الصراع بين الترك والماليك ، وشايخ زعماء المصريين محمد على باشا ، واختاروه والياً على مصر ، وتجرد لمحاربة الماليك واستئصال شأفتهم .

وفى ذات ليلة بينما كان محمود ولورا يزوران نيكلسون ، دخل حسين العسال ابن عم محمود ، وقال وهو يلهث من التعب : لقد بحثت عنك يا محمود فى كل مكان . جئت اليوم من الإسكندرية وهى فى أشد أحوال الكرب والاضطراب ، فقد نزل بها بالأمس جيش إنجليزى واحتل المدينة ، والناس فى حال يرثى لها ، لأنهم لم يكادوا يفيقون

من صدمات الفرنسيين ، حتى سقطوا في أيدي الإنجليز .
وقد علمت من الشيخ المسيرى أن قائد هذه الحملة يدعى
فرينزر . فبهت محمود وقال في ذهول : جيش إنجليزى ؟
- نعم فإنى أعرف الراية الإنجليزية ، وأميز العلم
الإنجليز من أى جنس آخر . فقال محمود : ولماذا قدموا
يا ترى ؟ فأجاب نيكلسون وقد أدرك حرج موقفه : إنهم
لم يجيئوا لامتلاك البلاد ، والذي أعلمه أن الدولة العثمانية
حالفت نابليون ، وقطعت صلاتها بإنجلترا ، فخاف
الإنجليز أن يستغل الفرنسيون صداقتهم الجديدة للترك
فيعودوا إلى احتلال مصر ، فجاءوا لدرء الخطر الفرنسى
عن مصر . وربما كان مجيئهم استجابة لدعوة من المماليك .
فقال محمود ساهماً : هذا كلام حسن يا صاحبي ، وأرجو
أن يكون الأمر كما تقول .

وبعد أيام كانت رشيد فى قلق واضطراب ، فقد شهد
الناس من مثذنة مسجد زغلول جيشاً مقبلاً على المدينة .
ولم يكن برشيد من العدة وآلات القتال ما تستطيع أن تدرأ
به جيشاً غازياً ، ولم يكن لها من الأسوار إلا أطلال عصفت
بها الرياح والأنواء . وما كانت إلا ساعة من نهار ، حتى
دخل الإنجليز المدينة بغير قتال ، فثار السكان وغضبوا . وكان
محمود العسال فى حيرة بين واجبه وحبه ، فما كان يصح فى عقله

أن يقتحم المغيرون مدينته وهو واقف مكتوف اليدين .
ولكن لورا ؟ أيحارب قومها ؟ لقد كاد قلبه لشدة شغفه
بها يتسع لحب الإنجليز جميعهم .

جلس حزيناً مفكراً ، وأصوات الناس وعجيجهم تملأ
أذنيه ، وهم مسرعون للقتال . فدخلت عليه لورا وقالت :
- في أي شيء تفكر يا محمود ؟

- أنا في حيرة بينك وبين وطني يا حبيبتى .

- بيني وبين وطنك ؟ إن قومي بخير يا محمود ، وإن
قومي يمجدون الشهامة كيفما كانت ، حتى إنهم ليمجدونها
في أعدائهم . وإنني لم أحبك إلا لبطولتك وإقدامك ،
وغيرتك على بلادك ، فإذا تخليت عن هذه الصفات
لأجلى فقد تخليت عن حبي .

لا يا حبيبي سر على بركة الله مجمع القلب باسم
الوجه ، وعد إلى زوجتك الواهة مظفراً منصوراً .

فوثب إليها يقبلها وتقبله في شغف وحنان ، ثم اختطف
بندقيته وقفز إلى باب الدار ليلحق بالجموع الزاخرة التي
شمرت للدفاع عن المدينة .

وكان الحشد عجبياً حقاً ، اجتمع فيه الرجال والنساء
والشيوخ والأطفال ، وكانت العصي والحجارة أكثر ما يرمى
به هذا الجيش من عدد القتال ، فتقدم محمود الجمع ، ودعا

إلى الهجوم بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين ، ولما احتدم القتال
ولاح النصر في جانب أهل المدينة ، رأى محمود رابية
لا تزال تتحصن بها ثلة من الجنود ، فدعا إلى محاصرتهم ،
ولكنه لم يكد يتقدم منهم قليلا حتى رماه أحدهم برصاصة
اخترقت صدره فسقط على الأرض صريعا .

وهنا ثار السكان ووثبوا وثبة رجل واحد ، فتراجع الغزاة
وغادروا المدينة ، وعاد الجموع يحملون جثة محمود بين
البكاء والعيويل ، حتى وصلوا إلى بيته ، فهرعت لورا
المسكينة إلى زوجها المقتول نادبة باكية ، وروت بنفسها
عليه تعانقه وتقبله ، وتخاطبه كأنما هو حي مدرك ، بألفاظ
تقطع نياط القلوب ، وعبارات تستنزف ماء العيون .
وفي الصباح هرع الناس للاحتفال للجنائز ، وأخذ
المؤذنون فوق المآذن يشيدون ببطولة الراحل ويمجدونه ،
ويستمطرون عليه الرحمات

ثم حمل أعيان المدينة النعش على أعناقهم إلى مدفن شهاب ،
وعاد المشيعون يرددون الدعوات ويرسلون الزفرات .
أما لورا فقد أصابها طائف من الذهول ، فكانت
تخرج في كل صباح مع خادمتها ذاهلة مأخوذة ، فتذهب
إلى الحدائق لتجمع أنضر أزهارها ، ثم تتجه إلى قبر
زوجها فتنثرها فوقه ، وتجلس مطرقة صامتا حتى يظلمها

الليل ، فتعود مع الخادمة .

وفي إحدى الليالي الممطرة المظلمة ، سمعت السيدة نفيسة طرقت على باب دارها ، فأيقظت خادمتها لتفتح الباب . وما هي إلا لحظة حتى صعد سرور ومعه سيده زبيدة ، فلما رأت زبيدة أمها سقطت بين ذراعيها باكية ، وطفقت تقبلها وتهتف بكلمات متقطعة . أما أمها فقد أدهشتها المفاجأة ، فأخذت تهذي وتبكي ، ثم تفتح عينها واسعتين لترى أفي يقظة هي أم في منام . فلما سرى عنها قليلا تأملت فتاتها المحبوبة ، فرأت هزالا وسقماً ، ووجهاً شاحباً شاعت فيه الغضون ، فهزت رأسها في شجن وأسى واتجهت إلى سرور فقالت : قل لي كل شيء يا سرور . فزفر سرور زفرة طويلة ثم قال : سافرنا من رشيد إلى فرنسا ، ثم لحق بنا الجنرال مينو بعد شهر ، وأقمنا بباريس ، وفي هذه المدينة تبدلت أخلاق الجنرال ، وكنت دائماً أوصي سيدتي بالصبر ، ثم رحلنا إلى إيطاليا في مدينة يسمونها «تورينو» فزادت حدته ، وتضاعف احتقاره لسيدتي بما لا يحتمل . ثم هجر المنزل ، وترك سيدتي تقاسي غصة الفقر وألم المهانة . ولم نصبر هذه المدة الطويلة على هذا الأذى ، إلا من أجل ابن سيدتي سليمان ، ولكن الجنرال شمر أخيراً عن ساعديه ، وضرب القاصمة ، فأرسل ابنه إلى فرنسا ليضعه في إحدى الأسر الشريفة لتثقيفه

وتعليمه . وعندئذ لم يبق في قوس الصبر مترع ، ولم تجد
 سيدتى في البقاء بإيطاليا - بعد أن انتزع ابنها منها -
 إلا موتاً بطيئاً تحيط به الحُموم والأحزان ، فعزمنا على الفرار ،
 وأخرجت كيس المال الذى أودعته عندى يوم رحيلنا ،
 فسافرنا خفية في ظلام الليل إلى مدينة تسمى « نابلى »
 ومنها ركبنا سفينة إلى الإسكندرية ، فوصلنا إليها أمس ،
 ثم أكثرينا بغاين إلى رشيد . فتهدت نفيسة وقالت : نعم
 ما صنعت يا زبيدة !! ستعيشين بجانب أمك هائلة سعيدة ،
 وستمحو الأيام تلك الذكريات القاسية ، فإن كل شئ ينسى
 يا بنتى في هذه الحياة .

- كما تشائين يا أمى . كيف حال ابن خالتى محمود ؟
 فوجمت نفيسة وسقط في يدها ، لأنها ما كادت تظفر
 بتهدئة بنتها حتى اصطدمت بسؤال يثير الآلام . ولكنها
 جمعت شجاعتهما وقالت : إن هذه الدنيا لا يركن إليها يا زبيدة .
 - ما معنى هذا ؟

- لقد قامت حرب بالمدينة منذ شهر ، كان محمود
 بطلها المغوار .

- أروح ؟

- نعم جرح جرحاً بالغاً .

- وكيف حاله الآن ؟

— إنه الآن لا يتألم يا زبيدة . إنه في جنات النعيم !
 فشبهت زبيدة شهقة كادت تودى بها ، فعادت أمها إلى
 مهدئتها وتسكين ثورتها ، وانقضى الليل كله في بث وبكاء ،
 ومحاولة للتصبر والعزاء .

وعند ما بزغت الشمس سألت زبيدة أمها عن مكان
 قبر محمود ، وأخذت معها سروراً ، فانطلقت إلى القبر
 هالعة جازعة ، حتى إذا بلغته رأت امرأة جاثية عنده ،
 مطرقة ذاهلة ، فلم تتبين وجهها . فجثت قبالتها في صمت
 ونخشوع ، ثم غلبتها الزفرات فتنهت المرأة ورفعت رأسها ،
 وحين نظرت زبيدة إليها من خلال الدموع صاحت :
 — لورا ؟ أنت لورا ؟ ونظرت إليها لورا نظرة المذهول وقالت :
 — زبيدة ؟ أحقاً أنت زبيدة ؟ ثم غلبهما البكاء فأطرقتا ،
 وطال هذا الإطراق ، حتى إذا قلق سرور لطول صمتهما
 قام فرأى لهوله أنهما فارقتا الحياة ، فأسرع إلى سيده
 فأخبرها الخبر الأليم .

وشاع الأمر في المدينة ، فجاء السيد على الحماس وجاء
 نيكلسون ، وتراحم الناس فحملوا الجثتين . وبعد صلاة
 الظهر احتفل أهل رشيد بلحنازتهما ، ووضعوهما في نعش
 واحد ، ودفنوهما في قبر واحد .
 وإذا ذهبت إلى رشيد اليوم وقصدت إلى مدفن شهاب

رأيت قاعة طال القدم على جدرانها ، بها قبر نثرت عليه
الأزهار ، ورأيت رخامة كتب عليها بخط الثلث الجميل :

« هذا قبر الشهيدين »

عصفت بك الأطماعُ والأيامُ
وتبددت عن جفنك الأحلامُ
وتركت محسوداً يصارع قلبه
حتى تترفرف فوقك الأعلام
وصببت فوق ضريحه دمع الهوى
والحب والأمل البعيد حطام
وبعثت روحك في ثنايا روحه
فعلى شبابكما الرطيب سلام
بدر الدين على الجحارم

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٥٦٩٠
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-3376-5

١ / ٨٦ / ٥١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)